الفصل الرابع

الحضارة المصريَّة الإسلاميَّة

الفتح العربي الإسلامي مصر

لقد كان لمصر قبل فتحها مكانة كبيرة في الإسلام وعند المسلمين فقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم تصريحاً أربع مرات :

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ }[يوسف : ٢١]

{ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ } [يوسف : ٩٩]

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا } [يونس:٨٧]

وقال تعالى حاكياً عن فرعون : { أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ } [الزخرف:٥١] .

ليس هذا فقط بل تحدَّث الله تعالى عن بعض معالمها ورجالها في نحو ٣٠ موضعاً كقوله تعالى : { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ } [القصص:١٥] يعني : مصر ، وقوله جل وعلا : { قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } [الأعراف:١٠٩] إلى آخر هذه المواضع .

ولم يصرِّح القرآن الكريم باسم أحد كما صرَّح باسم فرعون حاكم مصر حيث ذكره الله تعالى ٧٤ مرة . (١) كما لم يصرِّح الله تعالى باسم نبي كما صرَّح باسم "موسى" الذي أرسله إلي فرعون وسكَّان مصر حيث جاء ذكر كلمة موسى في القرآن الكريم ١٣٦ مرة . (٢)

كما توقَّف سيدنا محمد ﷺ عند مصر في رحلة الإسراء وصلَّى فوق جبل طور سيناء ركعتين بأمر من سيدنا جبريل ، وقد بشَّره جبريل بفتح المسلمين لها .

---

(١) محمد عبد الباقي " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " دار الحديث ص ٥١٥ ، ٥١٦ .
(٢) نفسه ص ٦٨٠– ٦٨٢ .

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : " أُتِيتُ بِدَابَّةٍ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ خَطْوُهَا عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهَا فَرَكِبْتُ وَمَعِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَسِرْتُ فَقَالَ انْزِلْ فَصَلِّ فَفَعَلْتُ فَقَالَ أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ صَلَّيْتَ بِطَيْبَةَ وَإِلَيْهَا الْمُهَاجَرُ ثُمَّ قَالَ انْزِلْ فَصَلِّ فَصَلَّيْتُ فَقَالَ أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ صَلَّيْتَ بِطُورِ سَيْنَاءَ حَيْثُ كَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام " (رواه النسائي والبيهقي والطبراني)

كما كاتب النبيُّ ﷺ المقوقسَ حاكمها وقَبِلَ هداياه ، وأوصى بأهلها خيراً ، وبشَّر بأن جندها خير أجناد الأرض ذلك أنهم في رباط إلى يوم القيامة .

لذا اتَّجهت أنظار المسلمين إلى مصر التي بشَّرهم النبي ﷺ بفتحها .

عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيراً فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال أبو بكر ولم يا رسول الله قال لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة . " (١)

كما اتجهت أنظار المسلمين ناحية مصر لفتحها لأنها مهد الحضارات ودرَّة التاج البيزنطي .

يقول أحمد أمين : " فتحت مصر مهد المدنيَّة القديمة ، والوارثة لحضارة المصريين واليونان والرومان ، وبها الإسكندريَّة مجمع المذاهب الفلسفيَّة والطوائف الدينيَّة ، ملتقى الآراء الشرقيَّة والغربيَّة " (٢)

وبعد أن فتح المسلمون الشام استقَّر رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على فتح مصر ، واختار لهذه المهَّمة عمرو بن العاص الذي أسرع نحو مصر واستطاع بجيشه الصغير ، الذي يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف مقاتل ، أن يخترق سيناء دون جهد ، فوصل من رفح حتى بلبيس لم يقابله إلا حاميات قليلة من البيزنطيين ، كان أهمها في العريش التي استولى عليها في ذي الحجة ١٨ هـ / ديسمبر ٦٣٩ م ثم تقدَّم حتى وصل إلى أقوى الحصون البيزنطيَّة في شرق مصر عند بلدة "الفرما" وهناك وقع التحام بين جيش المسلمين والبيزنطيين واستمرَّ القتال شهراً أو شهرين حتى اقتحمه

(1) ذكره ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وأخرجه ابن عساكر .
(2) أحمد أمين " فجر الإسلام " دار الكتاب العربي بيروت ط١٠ ص ٨٥

المسلمون في المحرم ١٩ هـ ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى قلب مصر ، فاتجه عمرو بجيشه إلى بلبيس .

وقد مال سكان مصر من الأقباط مع المسلمين على البيزنطيين نتيجة للإدارة السيئة لهؤلاء ، بالإضافة إلى السياسة الدينيَّة التي سارت عليها الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة في اضطهاد مسيحي مصر الأقباط ، حتى انحاز عدد كبير من السكان الأصليين إلى جانب المسلمين ، وهاجموا أحياناً الجنود البيزنطيين أينما صادفوهم وسلَّموهم للمسلمين بعد تجريدهم من سلاحهم .(١)

لماذا رحَّب المصريون بالفتح الإسلامي ؟

لم يعتبر المصريون الفتح العربي الإسلامي غزواً واحتلالاً إنما اعتبروه منقذاً لهم من الظلم الروماني ، فقد سمعوا بعدل المسلمين في الأمم التي فتحوها ، وقد كان حالهم مع الفاتحين المسلمين كحالهم مع الإسكندر الأكبر " ذو القرنين رسول الله " .

والذي يؤكد ترحيب المصريين بالمسلمين ومساعدتهم في حربهم ضد البيزنطيين هو دخول المصريين في الإسلام أفواجاً وهم الذين قاوموا بل استشهدوا في سبيل الدفاع عن عقيدتهم ضد الرومان وغيرهم .

أتمَّ عمرو بن العاص فتح مصر عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م وأظهر عمرو بن العاص بعد الفتح تسامحاً شديداً في معاملة المصريين فسمح للبطريك بنيامين بالعودة إلى الإسكندريَّة ، بعد أن ظلَّ مختبئاً حوالي ١٣ سنة في عهد البيزنطيين مما أدَّى إلى لم شمل الأقباط الذين حصلوا على حرية كاملة في إقامة شعائرهم ، فلم يحفل المسلمون بالخلافات الدينيَّة بين المسيحيين ، والتي كانت تميِّز الحكم البيزنطي ، ولم يعد الأقباط يخشون أظهار عقيدتهم ، فقامت الكنيسة القبطيَّة بأنشطتها الدينيَّة دون تدخُّل من السلطة الحاكمة . (٢)

لقد فرح الأقباط بخروج الروم (البيزنطيين) من مصر ، وعبَّر البطريك بنيامين لعمرو بن العاص عن فرح المسيحيين بقوله : " كنت في بلدي وهو الإسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنَّا اضطهاد

---

(1) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٥ .
(2) نفسه ص ٩٦ .

الكفرة (يقصد الروم) وبأسهم " وقال أيضاً عن نفسه وعن بقية القبط : " لقد فرحوا كما يفرح السِّخال (١) إذا ما حُلَّت لهم قيودهم وأطلقوا ليرشفوا من ألبان أمهاتهم " (٢)

لقد عامل المسلمون أقباطَ مصر معاملة الأهل والأصهار لا معاملة الذل والصَّغار التي كان يعاملهم بها الرومان ، ولم تكن معاملة المسلمين هذه أقباط مصر نابعة من تعاليم الإسلام العامة فحسب إنما من توصية خاصة من رسول الله ﷺ للمسلمين بأهل مصر خيراً .

فأقباط مصر لهم شأن خاصٌّ ومنزلة متميِّزة، فقد أوصى بهم رسول الله ﷺ وصية خاصَّة، يعِيَها عقل كلُّ مسلم ويضعها في السويداء من قلبه، فقد روت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: " اللهَ اللهَ في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّة وأعوانًا في سبيل الله"

[رواه الطبراني]

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال : " ... استوصوا بهم (يعني قِبْط مصر) خيرًا، فإنهم قوَّة لكم، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله " [رواه أبو يعلى]

روى مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : " إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا ".

وفي رواية: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا "، أو قال : " ذِمَّة وصِهرًا "

الذمة: هي الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر، فلكون مارية أم إبراهيم منهم . (٣)

وقد صدَّقَ الواقع التاريخي ما نبَّأ به الرسول ﷺ فقد رحَّب الأقباط بالمسلمين الفاتحين لما بينهم من ذمَّة ورحماً وصهراً ، وفتحوا لهم صدورهم، رغم أن الروم الذين كانوا يحكمونهم كانوا نصارى مثلهم، ودخل الأقباط في دين الله أفواجًا، حتى إن بعض ولاة بني أميَّة فرض الجزية على مَن أسلم منهم، لكثرة مَن اعتنق الإسلام.

([1])(السخلة) الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد (ج) سخل وسخال وسخلان . المعجم الوسيط .

(2) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .

([3]) شرح النووي على صحيح مسلم . دار إحياء التراث العربي – بيروت ج١٦ص ٩٧ .

يقول د. ميلاد حنا : " في القرن السابع دخل العرب إلى مصر في ظروف خاصة غير متكررة إذ لم يتم الغزو بحد السيف ، بل رحَّب المصريون بالعرب كجزء من الخلاص في " عهد الاضطهاد العظيم " والذي كان قد سنَّه هرقل إمبراطور الرومان لإخضاع المصريين لعقيدة ومذهب مسيحي يختلف عن المذهب الأرثوذكسي الذي تمسكوا وناضلوا في سبيل الاحتفاظ به . "(١)

يقول المؤرخ الكبير يعقوب نخلة : " ولما ثَبُتَ قدم العرب في مصر شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه واكتساب ثقتهم به وتقرب سراة القوم وعقلائهم منه وإجابة طلباتهم وأول شيء فعله من هذا القبيل استدعاء بنيامين البطريرك الذي اختفى من أمام هرقل ملك الروم وذلك أنه كان بين رؤساء الأقباط المتقربين من عمرو واحد يسمى " شنودة " فتقدم إليه وأعلمه بخبر البطريرك وما كان من أمر هروبه واختفائه وطلب منه أن يأمر بعودته فلبَّي طلبه وكتب أماناً وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولا تثريب . ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له الولاء وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل وردَّ بنيامين إلى مركزه الأصلي معزَّزاً مكرَّماً وهكذا عادت له المياه إلى مجاريها وبعد اختفاء مدة طويلة قاسى فيها ما قاساه من الشدائد وكان بنيانين هذا موصوفاً بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) وقيل أن عمراً لما تحقق ذلك منه قرَّبه إليه وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها ، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منَّة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو ."(٢)

لقد أعاد عمرو بن العاص الحق لأصحابه فأعاد كنائس المصريين وأديرتهم التي اغتصبها منهم الرومان إليهم وبذلك زالت أسباب الشقاق بين مسيحيي مصر والمستوطنين الرومان الذين آثروا البقاء في مصر على الرحيل عنها .

يقول د. ميلاد حنا " ويبدو أن عمرو بن العاص كان متفهماً ومقدِّراً لموقف المصريين الأقباط من ترحيبهم به لسخطهم على النظام البيزنطي وأتصور – بمفهومي

---

(١) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٢٥ .
(٢) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مصدر سابق ص ٥٥ .

سياسي – أنه لا بد من أن يكون قد قطع على نفسه وعوداً بأن يترك الأقباط وشانهم فيما يتعلق بالعقيدة الدينيَّة ، فضلاً عن أنه قد خفف الضرائب عن الأهالي .

وتتفرد مصر في أن لها علاقة مع الإسلام منذ الأيام الأولى إذ يروي المؤرخون أن الرسول ﷺ قد بعث برسائل إلى الحكام البارزين في ذلك العهد في السنة السادسة من الهجرة وكان من بينهم مقوقس مصر .

ومن المعروف أن المقوقس قد أرسل هدية إلى " الرسول " جاريتين ودابتين وعسل وثياب وأن " الرسول " قد تزوج من " مارية القبطية " وقد ولدت له " إبراهيم " الذي مات قبل أن يبلغ ستة عشر شهراً .

أما " أخت مارية " فقد تزوجها " جهم بن قيس العبدري " وهي " أم زكريا بن جهم " والذي كان خليفة " عمرو بن العاص " في حكم مصر .

وهكذا توجد لمصر علاقة خاصة ومتميزة منذ فجر الإسلام ولكن بسرعة تحوَّل الإسلام إلى قوة سياسيَّة وعسكريَّة هائلة ولذلك فإن الحكام العرب – في نشوة انتصاراتهم وفتوحاتهم وفي السنوات الأولى من عهد الخفاء الراشدين – لم يحاولوا أن يفرضوا الدين الجديد مع الغزو ذاته ، إذ كان هدفهم الأساسي هو تثبيت أقدام الحكم في المناطق المفتوحة ثم تجهيز الجيوش لتوسيع الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة . (١)

كيف حكم عمرو بن العاص مصر ؟

عرفنا كيف ساعد المصريون المسلمين في حربهم ضد الاحتلال الروماني ، وكيف أحسن عمرو بن العاص إليهم ، ولبَّى طلباتهم ، وأجاب رغباتهم ، والآن نذكر كيف حكم عمرو بن العاص مصر .

يقول يعقوب نخلة : " أخذ عمرو في تنظيم البلاد وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي والوالي معاً فقسَّم البلاد إلى أقسام يرأس كل منها حاكم قبطي له اختصاصات وحدود معينة ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم ورتَّب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة وعيَّن نواباً مخصوصين من القبط ومنحهم حق

(١) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " مرجع سابق ص ٩٩ .

التداخل في القضايا المختصَّة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية فكانوا بذلك في نوع ما من الحرية والاستقلال المدني وهي ميزة كانوا قد جُرِّدوا منها في أيام الدولة الرومانية ولذا لم يجعلوا الحكومة في راحة بال .

وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة وولَّى عليه مُتولياً من ذويه يقبضه أقساطاً في آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد .

وتَّب الدواوين فاختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابيَّة والحسابيَّة وكانت كلها تجري باللغة القبطيَّة وبلغ ما جباه عمرو من الخراج في السنة اثني عشر مليوناً من الدنانير مع أن الذي كان يجبيه المقوقس في أيام الروم لم يكن أقل من ثمانية عشر مليوناً .

وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ أزمان "(١)

أرأيتم كيف حكم المسلمون مصر عند الفتح لقد عرفوا قدر مصر وعظمة أهلها فلم يتركوهم يقيمون شعائرهم الدينية التي اضطهدهم الرومان بسببها فحسب بل منحوا فضلاءهم حرية إدارة شئون المحليات الدينيَّة التي حرَّمها الرومان عليهم ، وإدارة شئون المحليات المدنيَّة التي حَرَمَهم الرومان منها .

كيف دخل المصريون في الإسلام أفوجاً ؟

إن من أهم أسباب دخول أقباط مصر في الإسلام هو الخلافات المذهبيَّة المسيحيَّة المعقَّدة التي أثيرت عبر المجامع المسكونيَّة والتي أدَّت إلى التقاتل والتناحر ، في مقابل يسر الإسلام ووضوح عقيدته وسهولة شريعته فجميع المسلمين يتفقون على أصول دين واحدة ، ويعذر بعضهم بعضاً في اختلاف التنوع الذي قد يقع في بعض الفروع ففي هذا الاختلاف سعة ورحمة .

كما أن الإسلام لا يفرض " مؤسسة دينيَّة دنيويَّة " وأن العلاقة الدينيَّة مباشرة بين العبد وربه تعالى فلا كهنوت في الإسلام ولا رجال دين يتوسطون بين العبد وربه { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة : ١٨٦] .

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مصدر سابق ص ٥٦ ، ٥٧

لقد استفاد المصريون من الفتح العربي الكثير ، استفادوا توحيد الله الخالص وشريعة الله الخاتمة الغراء ، وسيرة النبي العطرة القدوة الحسنة ، وسير الخلفاء الراشدين المهديين ، ومعاشرة صحابة رسول الله والتتلمذ على أيديهم .

كما استفادوا بمصاهرة العرب قوَّة في النسل وإثراء في الثقافة والمعرفة ، وانفتاحاً أكثر على شعوب إسلاميَّة عربيَّة ومُسْتَعْجَمَة ، وتعلُّم لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وعلماء الإسلام .

وفَتْحُ المسلمين مصر وما صاحب ذلك من فوائد جمَّة للمصريين لم يغيِّر طبيعتهم ويجعلهم عرباً عاربة أو مُسْتَعْرِبة إنما أيقظ همتهم ، وشحذ عقولهم ، وأسقط نير الاحتلال الغربي عن كاهلهم ، وحطَّم القيود التي كانت تكبلهم ، وأصقل معدنهم النفيس فانطلقوا يصنعون الحضارة الإسلاميَّة متعاونين مع إخوانهم من المسلمين .

فلم يكن الفتح العربي مصر أبداً احتلالاً استيطاناً بغيضاً اغتصب البلاد واستذَّل العباد ونهب ثرواتها ، إنما كان فتح خير وبركة حرَّر البلاد وأكرم العباد ونمَّى الثروات .

أما الحديث عن أن عمرو بن العاص حرق مكتبة الإسكندرية فهو حديث خرافة فعندما دخل عمرو بن العاص الإسكندرية عام ٦٤٢م لم تكن مكتبة الإسكندريَّة موجودة حتى يحرقها حيث إنه ثبت أن مكتبة الإسكندريَّة تمَّ إحراقها عن آخرها في زمن الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر عام ٤٨ ق.م " ، ولم يرد ذكرها في كتب الأقدمين كاليعقوبي، والبلاذري، وابن عبد الحكم، والطبري، والكندي، ولا في تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم كالمقريزي، وأبي المحاسن، والسيوطي، وغيرهم .

الحضارة الإسلاميَّة

لقد اشتملت حضارة الإسلام على جميع مقوِّمات الحضارة الحقيقيَّة بجانبيها المعنوي والمادي ، كما جاءت لتسمو بكل كيان الإنسان : روحاً ، قلباً ، عقلاً ، نفساً ، وجسداً ، وتسعد كل البشر .

ولا عجب فهي وإن كانت ربَّانية المصدر والمنهج والغاية فإنها إنسانيّة الغاية والهدف أيضاً ؛ فإذا كانت الربانيَّة هي غاية المجتمع المسلم كما هي غاية الفرد المسلم فإن مضمون هذه الغاية هو سعادة الإنسان ، وفوزه بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين .

وإذا كانت الربانيَّة هي رسالة المسلم فإن أهداف هذه الربانيَّة هي تحقيق الخير للإنسان والسمو به ، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط . (١)

ونبدأ الحديث عن الحضارة الإسلاميَّة بذكر الجانب المعنوي : الديني الأخلاقي السلوكي ، ثمَّ نعقبه بالحديث عن قضيَّة مهمة لها علاقة بهذا الجانب وهي علاقة الإسلام بالعروبة ، ثمَّ نتحدَّث عن مدنيَّة الإسلام والمنجزات الحضاريَّة ودور مصر في هذا المجال فيها .

الخصائص العامة للشريعة الإسلاميَّة

للشريعة الإسلامية خصائص عامة تميزها عن غيرها من الشرائع، لأنها شريعة الله الخاتمة لكل الشرائع والأديان الباقية ما دامت السموات والأرض ومن أهم هذه خصائصها :

أولاً : ربانيَّة المصدر والمنهج

إن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه منهج رباني خالص؛ لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ .

قال تعالى: { ياأيها الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [يوسف: ٥٧]

وربانية المصدر أكسبت الشريعة الإسلاميَّة العصمة من التناقض والتطرف ، والبعد عن التحيز والهوى، وحررت الإنسان من عبوديته لبشر مثله أو مخلوق شبهه . (٢)

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مكتبة وهبة ص ٥٣ .
(١) أحمد أبو وائل أكرم " من خصائص شريعتنا الإسلامية " ص ١٢

وكما أن الله تعالى هو مصدر الشريعة فهو جلَّ وعلا الذي حدد الغاية منها وهي توحيد الله تعالى وحسن عبادته ، وتزكية النفس وعمارة الأرض .

قال تعالى : { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ } [هود : ٦١]

إنها شريعة مقدسة فهي من عند الله تعالى، وقد تترك هذه القدسيَّة الأثر الكبير في حياة المسلم بحيث تجعله يحرص على تنفيذ أحكام الشريعة بصدق وأخلاق ويحذر كل الحذر من مخالفتها ولو كان في ستر من أعين الناس ولا يطلع عليه أحد، لأنه يعلم أن الله العليم الخبير يطلع عليه ويراه . (١)

ثانياً : إنسانيَّة

الله تعالى غني عن العالمين لا تنفعه طاعة الطائعين كما لا ضره معصية العاصين . { وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } [إبراهيم: ٨]

وعقائد الإسلام وأحكامه وأهدافه إنما جاءت لإسعاد الإنسان في الدنيا والعناية به وبحقوقه، بطرق مباشرة تظهر لعامة الناس، وغير مباشرة يدركها العارفون منهم.

فشريعة الإسلام : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق تعود كلها بالنفع على الإنسان في الدنيا والآخرة فلا يضل الإنسان بها ولا يشقي بل يسعد في الدارين .

{ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى } [طه: ١٢٣]

ثالثاً : اليسر ورفع الحرج

دين الله يسر لا مشقة فيه، فلا يطلب الله مِن عباده ما لا يطيقونه .

{ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا } [البقرة : ٢٨٦]

فالله تعالى لم يكلفنا حسب طاقتنا بل خفف عنا فكلفنا حسب وسعنا والوسع ما تسعه قدرة الإنسان أو ما يسهل عليه من المقدور وهو ما دون مدى طاقته أي سنته تعالى أنه لا يكلف نفساً من النفوس إلا ما تطيق وإلا ما هو دون ذلك كما في سائر

---

(٢) نفسه ص ١٢

ما كلفنا به من الصلاة والصيام مثلاً فإنه كلفنا خمس صلوات والطاقة تسع ستاً وزيادة . وكلفنا صوم رمضان والطاقة تسع شعبان معه وفعل ذلك فضلاً منه ورحمة بالعباد أو كرامة ومِنَّه على هذه الأمة خاصة . (١)

وحتى ما فرضه الله تعالى على الإنسان ، وهو سهل ميسور ، إن عجز الإنسان عن فعله أو أوقعه فعله له في حرج ، لعذر شرعي مؤقت أو دائم ، أعفاه الله منه وتجاوز عن تقصيره فيه .

يقول تعالى : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ } [الحج : ٧٨]

رابعاً : جمع الشريعة بين الثبات والمرونة في أحكامها

قال ابن القيم : " الأحكام نوعان : نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه .

والنوع الثاني : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة فشرع التعزير بالقتل لمدمن الخمر في المرة الرابعة " (٢)

فالأحكام الثابتة هي المعلومة من الدين بالضرورة التي أجمع عليها المسلمون قديماً وحديثاً ، وهي قطعية الثبوت قطعية الدلالة أما الأحكام قطعية الثبوت ظنية الدلالة أو ظنية الثبوت والدلالة فهي مجال الاجتهاد من أهل للاجتهاد لذا تتغير بحسب اقتضاء المصلحة زماناً ومكاناً وحالا .

وبهذه الخاصية تستوعب الشريعة الإسلامية كل ما جد من وقائع وما تبدل من عرف وعادة صالحين فلا يستطيع أحد أن يصفها بالجمود .

خامساً : الشمول

---

(١) تفسير الألوسي " روح المعاني " ج ٢ ص ٤٠٤
(٢) ابن القيم " إغاثة اللهفان " ج ١ ص ٣٣١

لقد كان لكل نبي شرعة ومنهاج وشاءت حكمة الله تعالى أن تكون شريعة الإسلام التي جاء بها خير الأنام لكل البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمنتهم وأمكنتهم ولغاتهم ؛ فقد وحَّدت وسائل الاتصال العالم كله وجعلته قرية صغيرة يجمع أهلها خصائص واحدة ، لذلك جعل الله الشريعة الخاتمة ليست قاصرة على قوم بعينهم إنما شاملة لجميع البشر .

ومن مظاهر الشمول التي تميز بها دين الإسلام:

أ- أنه شامل لكل الناس : العربي والأعجمي ، والذكر والأنثى ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والقوي والضعيف ....

يقول تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف: ١٥٨]

ويقول عز وجل: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [سبأ: ٢٨]

ب- شمول شريعة الإسلام لجميع مراحل حياة الإنسان وجميع نواحيها .

فالإسلام وضع نظاماً لحياة الإنسان وهو في بطن أمه حملاً، ثم عندما يكون طفلاً، فبيَّن الذي له من حقوق الحضانة والرضاعة والرعاية، ثم لمَّا يبلغ ويتزوج، ثم عندما يكون أباً أو أمّاً، ثم لما يكون شيخاً كبيراً، فشريعة الإسلام ترعى الإنسان وتدير شئونه من قبل ولادته حتى وفاته وبعد وفاته وتنظم حياته كلها في نفسه وعلاقاته مع غيره، في بيته وفي عمله وفي كل أحواله .

{ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام :١٦٢]

ج- تشمل كل العصور والأزمنة من يوم مبعثه عليه الصلاة والسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي خالدة لا يلحقها تبديل ولا تغيير قال تعالى :{ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [يونس :٦٤] وقال أيضاً : " وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }] الرعد: ٤١]

فهي إذا تتماشى مع الواقع البشري المتغير عبر الأزمنة والأمكنة ومسايرة لواقعهم [١] لجمعها بين ثبات الحكم الشرعي وتغير فتوى العلماء المجتهدين حسب الزمان والمكان والحال .

سادساً : الوسطيَّة

دين الإسلام دين وسط لا غلو فيه ولا تقصير، ولا إفراط فيه ولا تفريط ، والإسلام وسط في الاعتقاد والتصور ، ووسط في التعبد والتنسك ، ووسط في الأخلاق والآداب ، ووسط في التشريع والنظام .

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبد الأوثان والأحجار . [٢]

فالإسلام يدعو للإيمان بإله واحد لا شريك له لم يلد ولم يولد ، ولا مماثل ولا مشابه فليس كمثله شيء سبحانه وتعالى .

{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [سورة الإخلاص]

وتواترت الأدلة على وجوده سبحانه وتفرده بالعبادة ووجوب الطاعة .

قال تعالى: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ } [الطور: ٣٥، ٣٦]

{ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [النمل : ٦٤]

والإسلام وسط بين العبادات والشعائر بين الأديان والنحل التي ألغت جانب العبادات الربانية من فلسفتها وواجباتها كالبوذية ، وبين الأديان التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج كالرهبانية المسيحية . [٣]

{ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ } [الحديد : ٢٧]

---

(١) أحمد أبو وائل أكرم " من خصائص شريعتنا الإسلامية " ص ١٥
(٢) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مكتبة وهبة ص ١٢٢
(٣) نفسه ص ١٢٤ .

والإسلام وسط في فهم طبيعة الإنسان فالإنسان في نظر الإسلام ليس روحاً فقط كما فهم غلاة المثالية ودعاة الرهبانية ، وليس عقلاً فقط كما فهم الفلاسفة الماديون الملاحدة ، وليس جسداً فقط كما فهم الإباحيون عبيد غرائز الجسد .

ولكن الإنسان روح وجسد وعقل وقلب .

{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } [الروم : ٣٠]
" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ "
] متفق عليه [

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين الجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية . (١)

والإسلام وسط في الشريعة بين اليهودية التي أسرفت في التحريم مما حرموه على أنفسهم أو حرمهم الله عليهم جزاء ظلمهم ، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت ما نصت التوراة على تحريمه مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة .

والتشريع الإسلامي وسط في شئون الأسرة بين الذين شرَّعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد وبين الذين رفضوه وأنكروه .

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرَّموا الطلاق لأي سبب ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق كالكاثوليكية ، وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق فلم يقيدوه بقيد أو شرط .

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين " الليبراليين " الذين يدللون الفرد على حساب المجتمع بكثرة ما يعطى له من حقوق يطالب بها ، وقلة ما يفرض عليه من واجبات يسأل عنه ، وبين الماركسيين الذين يضخِّمون دور المجتمع بالضغط على الفرد والتقليل من حقوقه والحجر على حريته .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول توازن مكونات الإنسان وكيف تعاملت معها شريعة الإسلام راجع كتابنا " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " مكتبة مدبولي .

لقد أعطى الإسلام للفرد حقوق وحريات كثيرة فحفظ للفرد حق الحياة ، وحق الكرامة ، وحق التملك ، وحق الاستقلال الشخصي ، وحق النقد والمعارضة ، وحرية الرأي والفكر .. ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها ، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة وألا يكون فيها ضرر للغير ، وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها إذ " لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ " في الإسلام أي لا يضر الإنسان نفسه ولا يضر غيره . (١)

إن من أهم صفات الشريعة الإسلاميَّة ومميزاتها أنها شريعة عادلة لا تميل للحاكم على حساب المحكوم، ولا تميز بين قوي أو ضعيف، بل وتحرم الظلم أيضًا وتحاسب عليه في الدنيا والآخرة، بخلاف القوانين الوضعية، والتي لا بد وأن يكون فيها ظلم وجور وتمييز لمجموعة على حساب الأخرى. (٢)

سابعاً : الواقعيَّة

المراد بالواقعية في شريعة الإسلام: أنها تراعي مكونات الإنسان التي فطره الله تعالى بها : الروح والقلب والعقل والجسد والنفس . كما تراعي طبيعة الكون والبيئة التي يعيش الإنسان فيها فشرائع الإسلام ملائمة لفطرة الإنسان وواقعه وحياته، كما هي مناسبة لطبيعة الكون الذي يعيش فيه ويؤثر فيه ويتأثر به ؛ ولهذا فهي الشريعة القادرة على إسعاد البشرية كلها وتعمير الكون .

فالله تعالى كما خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ توازن الإنسان والكون .

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }
[الحديد : ٢٥]

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مرجع سابق ص ١٣٧
(٢) د. عمر سليمان " خصائص الشريعة الإسلاميَّة "

وتدبر معي هذه الآيات العجيبة التي جمع الله تعالى فيها بين تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وخلق الكون، وأمره تعالى الإنسان بالتزام الميزان في كل ذلك وتحذيره تعالى من عدم مراعاة الميزان في فهم القرآن والإنسان والكون .

يقول تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } [الرحمن : ١- ٩]

فشريعة الله تعالى التي أنزلها في كتابه العزيز { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ } هي الميزان الإلهي لفهم الإنسان والكون {ووضع الميزان} وحذر الله تعالى من عدم تطبيق شرعه فيختل توازن الإنسان والكون {ألا تطغوا في الميزان } وأمر الله تعالى الإنسان بإقامة شرعة وتطبيقه بالعدل بين الإنسان وخالقه ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الإنسان وعناصر الكون {وأقيموا الوزن بالقسط} ثم يعود الله تعالى فيحذر الإنسان من الإخلال بشرعه أو استبدال غيره به مما يترتب عليه سخط الله تعالى ، وفساد الكون ، وتعاسة الإنسان {لا تخسروا الميزان} .

ثامناً : الوضوح والسهولة

مما تميز به الإسلام الوضوح في عقيدته وشريعته وأحكامه، فأصول الدين لا يجهلها مسلم أيّاً كان حظه من التعليم فالمسلم يعتقد بأن إلهه واحد لا شريك له ، وهو الله سبحانه وحده المستحق للعبادة دون سواه، وهو وحده الذي يقصد في الحاجات ، وهو وحده الذي بيده الضر والنفع ، وأنه تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: ١١]

كما يؤمن المسلم بأن الملائكة كائنات نورانية خلقها الله تعالى لعبادته وتنفيذ أوامره . {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : ٦]

ويؤمن المسلم بأن الله تعالى اصطفى من البشر رسلاً ليوحي إليهم بدينه ليعلموه للناس ويطبقوه في الحياة وهم معصومون من الخطأ المخل بمهام الرسالة .

{ رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ }

[النساء : ١٦٥]

وأرسل معهم الكتب المقدسة التي تشتمل على العقيدة والشريعة .

{ آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة :٢٨٥]

كما أن المسلم يؤمن بالبعث والنشور والحساب

{ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ } [المؤمنون : ١٥ ، ١٦]
وأن من يفعل مثقال خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .
{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }
[الزلزلة: ٧، ٨]

وتكون النتيجة المنطقية أن الأبرار يدخلون الجنة ، والأشرار يدخلون النار .
{ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار: ١٣ ،١٤]

أن الجزاء في الشريعة الإسلامية مختلفٌ عن باقي الشرائع، فهو يوجه أنظار الناس الذين يتهربون من العقوبة بأن العقاب قد ينزل على الجميع، على شكل تدمير يأخذ الله فيه الظالمين، أو قحط يمنع الله فيه القطر من السماء، كما أنه يعلِّمهم أن هناك جزاءً أخرويًا بجانب العقاب الدنيوي، وهو أعظم منه، وأشد إيلامًا، مما يدفع الإنسان لأن يتقي ربه، ويخلص في عمله، ويتجنب ما نهى الله عنه. (١)

وكل الغيبيات التي أخبر الله عز وجل بها من أمر الآخرة كالجنة والنار وما فيهما من نعيم أو عذاب. وكذلك وحدانية الله تعالى وخلقه الملائكة وبعثه الأنبياء الرسل وإنزاله الكتب المقدسة ، تدرك العقول معناها وإن كانت لا تدرك كيفيتها لأنها غيب، قال عز وجل .

ومن وضوح هذه الشريعة: أن جميع عباداتها سواء البدنية أو المالية كلها معلومة وواضحة؛ فالصلوات خمس في اليوم والليلة والصيام هو شهر واحد في رمضان، والزكاة معلومة مقاديرها وأنصبتها، والحج معلومة أركانه وشروطه وواجباته، يعرفها كل من تعلمها ولا تعجز العقول عن فهمها.

---

(١) د. عمر سليمان " خصائص الشريعة الإسلامية " .

وأخيراً فإن من وضوح هذا الدين: أن قراءة دستور هذه الأمة ومصدر تشريعها وهو القرآن الكريم وحفظه وفهمه ميسر سهل لكل راغب، قال عز وجل: { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر: ٤٠]

وسنة النبي ﷺ محفوظة بالإسناد، وسيرته مضبوطة محررة. ومن هذه المصادر يؤخذ الإسلام، وإليها يرجع عند الاختلاف. وهذا كله مما لم يتوافر لدين من الأديان.

وبهذه الخصائص يتأكد لدى الجميع صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، وخلوها من النقائص والعيوب الموجودة في الشرائع الوضعيَّة، وبالتالي أحقيتها في حكم البشر وسيادتهم.

وبعد الحديث عن خصائص الشريعة الإسلاميَّة هناك قضيَّة يجب تجليتها ، وهي علاقة الإسلام بالعروبة ، وهل الإسلام خصوصيَّة عربيَّة أم ديانة عالميَّة شارك في نشرها وقيام حضارتها العرب المُسْتَعْرِبَة : عرب الجزيرة العربية ، والعرب المُسْتَعْجَمَة : غير العرب الذي تعرَّبوا كالعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس ؟

الإسلام والعروبة

بداية يجب أن نقرر أنَّ الإسلام ، كدين ، ومن حيث أصوله الاعتقاديَّة ، ليس "خصوصيَّة عربيَّة" حتى يكون قسمة من قسمات العرب القوميَّة ، وإنما هو من هذا الجانب ، وفي هذه الأصول – علاوة على كونه وضعاً إلهيّاً وليس إفرازاً بشريّاً – ذو قسمة عالميَّة وإنسانيَّة ، وذو طابع عام يتعدَّى الأمم والشعوب والقوميَّات والحضارات .. إنه في مجاله كالقوانين العامة التي – لِعِلْمِيَتها – تتعدى بصلاحياتها وتوجهها كل ما علي الأرض من حدود وفواصل وتقسيمات وسدود .

والإسلام الدين رغم عالميته التي تتعدَّى وتتخطَّى حدود القوميَّات والحضارات والأجناس . نجده يطلب من أتباعه إن هم أرادوا فقه معجزته ووعي آيته الكبرى أن يتعرَّبوا ؟! وتلك ولا شك خصوصيَّة عربيَّة للإسلام لا ريب فيها ولا إبهام رغم " عالميَّة الدين " ! (١)

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص١٠ ، ١١ .

وفي مصر قدَّم الإسلام الحضارة مفهوماً للعروبة يتجاوز عصبيَّة الجاهليَّة ويرفضها . ويتجاوز النعرات العرقيَّة وينهي عنها ويضع محل كل ذلك مفهوماً حضارياً ، يعتمد الفكر واللغة والعلائق القوميَّة بين أبناء هذه الجماعة البشريَّة معياراً لمن هو العربي .

فيخطب الرسول ﷺ في الناس قائلاً : " يا أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أبٍ ولا أمٍّ ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلَّم بالعربية فهو عربي. "

وروي في مناسبة هذا الحديث أن قيساً بن مطاطية جاء إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام ﷺ قائماً يجر ردائه حتى دخل المسجد ثم نودي : أن الصلاة جامعة ، وقال : (ذكر هذا الحديث) ، فقام معاذ بن جبل وهو آخذ بتلبيبه ، قال : فما تأمرنا بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : دعه إلى النار ، فكان قيس ممن ارتد في الردة ، فقتل .(رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق)

وهذا الحديث – ضعيف السند صحيح المعنى – يسحب بساط العنصريَّة المقيتة من العرب المُسْتَعْرِبَة وينفي استئثارهم باللسان العربي دون العرب المُسْتَعْجَمَة ، وينزع نبرة الاستعلاء ونزعة العنصريَّة التي كانت لدى بعض العرب – كالأمويين ومن جاراهم – في التفاخر بأنهم أفضل البشر لأنهم هم العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول آخر الزمان من بينهم .

{ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [سورة الحجرات : ١٧]

وبعض العرب في العصر الأموي فاخروا بعروبتهم وسيادتهم على غيرهم من المسلمين من غير العرب وقسَّموا المجتمع إلى طبقات ثلاث وجعلوا أنفسهم على رأس هذه الطبقات وجعلوا العرب المُسْتَعْجَمِين مواليا لهم ثم جعلوا العبيد – وإن كانوا مسلمين – في الطبقة الدنيا .

وهذا التقسيم لم يقل به القرآن الكريم ولم يعلِّمه رسوله الأمين إنما القرآن الكريم يقرَّر في بيان واضح لا يقبل تأويلاً ولا تعطيلاً .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات:١٣]

يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأُمٍّ واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب، وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعدَّدة؛ ليعرف بعضكم بعضًا، إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له. إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم .

إن اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، تنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويُعْرَف به فضل الناس : { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } والكريم حقاً هو الكريم عند الله تعالى . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : { إن الله عليم خبير } .

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : إلوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبيَّة الجاهليَّة في كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنسانيَّ العالميَّ في ظلِّ راية واحدة : راية الله .

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية : « دعوها فإنها مُنْتِنَة » .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلاميُّ . المجتمع الإنسانيُّ العالميُّ ، الذي تحاول البشريَّة في خيالها المحلِّق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم الطريق إلى الله ؛ ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة راية الله . (١)

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر وقد ضرب ابنه مصريّاً وافتخر بآبائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين . فاقتصَّ منه عمر وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم ؟!!

وابن الأكرمين – العرب – ليس كلَّ من لبس الجلباب والغترة وسكن جزيرة العرب فليست العربيَّة بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربيَّة فهو عربيٌّ لا يتميز عليه غيره إلا بالتقوى وحسن العمل والخُلُق وتعمير الأرض .

فالعربيَّة ليست عرقاً ونسباً إنما هي لغة ولسان فمن تكلَّم العربيَّة فهو عربيٌّ وإن لم يكن أصله عربي وإسماعيل أبو العرب كان أبواه أعجميين ولم يكونا عربيين .

ويُقسم ابن خلدون العرب إلى أربع طبقات متعاقبة في المدى الزمني: العرب العاربة وهم البائدة، ثم العرب المُسْتَعْرِبَة وهم القحطانية، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة، ثم العرب المُسْتَعْجَمَة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلاميَّة. (٢)

ويقول الجاحظ " إن العرب قد جعلت من إسماعيل وهو ابن أعجمين – إبراهيم وهاجر – عربيّاً لأن الله فتق لهاته بالعربية المبينة ، ثم فطره على الفصاحة (٣) وعلى ذلك فسكان العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا وكل من يتكلم العربيَّة هم عرب يجمعون بين فضائل أصولهم العرقيَّة وحضاراتهم الإنسانيَّة وفضائل الإسلام التي لا يجنيها إلا من تعرَّب لسانه ليفهم الدين في نصوصه الأصليَّة وليس من المترجمات ولقد أفسدت المترجمات الديانات السابقة وكانت سبباً من السباب تحريفها والخروج بها

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٧ ص ٣ .
(٢) راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ .
(٣) نقلاً عن د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " مرجع سابق ص٢٣ .

عن هديها فالترجمة خيانة كما يقول المترجمون أنفسهم لذا حفظ الله تعالى القرآن الكريم من التحريف كما حفظ العرب المؤمنون اللغة العربيَّة وآدابها من الفساد عن طريق تأليف معاجم اللغة ، وعلم النحو والصرف والبلاغة وعلوم اللغة) وحفظوا الحديث الشريف ونقُّوه مما علق به من موضوع وضعيف عن طريق علوم الجرح والتعديل والرجال ولقد ساهم بالجهد الأكبر –ويا للعجيب– في حفظ اللغة العربيَّة وآدابها ونشأة علومها وحفظ الحديث الشريف ونشأة علومه مسلمو العرب المُسْتَعْجَمَة وليس العرب المُسْتَعْرِبَة وهذا يدل على أن الحفاظ على اللغة العربيَّة صيانة للإسلام وليس عصبيَّة جاهليَّة كالتي وقع فيها بعض من تفاخر بعروبته أو بقرشيته .

ومن تعلَّم العربيَّة من غير العرب تعلَّم العربيَّة الإسلاميَّة التي تحمل الثقافة الإسلاميَّة وتمجد قيمه وتنفِّر من عادات الجاهليَّة المذمومة فاللغة العربيَّة التي تعلمتها الشعوب المُسْتَعْجَمَة لغة الإسلام ذات القيم الدينية والرشاد وليست لغة الجاهليَّة التي ترسخ قيم الجاهلية الأولى ، تعلموا لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف ولغة الخلفاء الراشدين وفقهاء الإسلام وعلمائهم ؛ لذا لا عجب أن يقول سيدنا محمد ﷺ على سلمان الفارسي " سلمان منَّا أهل البيت " [١] ومن المعلوم أن سلمان فارسيٌّ غير عربي وفي هذا بيان أن رابطة الدين بما تشتمل عليه من قيم إلهيَّة عالميَّة خالدة أهم من الرابطة العرقيَّة المحليَّة العنصريَّة الضيقة .

وكان من الطبيعي أن نجد فهم العرب المُسْتَعْجَمَة – أصحاب الحضارات العريقة– الإسلام فهماً يختلف عن فهم البدويِّ ، فإسلام العرب المُسْتَعْجَمَة إسلاماً حضاريّاً سمحاً وسطيّاً راقياً بعكس الإسلام البدويِّ المتشدِّد المتطرِّف الشكليِّ العنصريِّ .

وكما أن روافد النهر تعمِّق مجراه وتزيد غزارة مياهه وقوَّة جريانه لكنها لا تغير مساره ولا تحرفه عن مصبه فكذلك اختلاط غير المصريين بالمصريين (بالزواج والمعاشرة والاختلاط) قوَّى العنصر المصري وغزَّاه ولم يغيِّر طبيعته وذلك مثل عروبة مصر ثقافيّاً ، أما إسلام مصر فقد ردَّها إلى مجراها الطبيعي الذي فُطِرَت عليه واقتلع الحشائش الضارة التي كانت تعيق الحركة المياه وبعض الجراثيم والميكروبات التي

(١) هذا الحديث في رفعه إلى النبي ضعف ، والصحيح وقفه على عليّ بن أبي طالب .

كانت تشوب صفائه وتغيِّر من طعمه ولونه ورائحته لذا أصبحت الشعوب المُسْتَعْجَمَة أنقى عنصراً باختلاطها بالجنس العرب فمن المعروف أن التزاوج من غير الأقارب يقوِّى النسل بعكس زواج الأقارب .

الخلافة الإسلاميَّة

الخلافة في الفقه السني هي رئاسة عامة للمسلمين جميعاً في الدنيا لإقامة أحكام الشرع الإسلاميِّ وحمل الدعوة الإسلاميَّة إلى العالم، وهي عينها الإمامة .

يقول أبو الحسن الماوردي: الإِمَامَةُ مَوْضُوعَةٌ لِخِلاَفَةِ النُّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا ، وَعَقْدُهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا فِي الأُمَّةِ وَاجِبٌ بِالإِجْمَاعِ " (١)

وسمِّيَت خلافة لأن الذي يتولاها يخلف النبيَّ في إدارة شئون المسلمين . وتسمَّى الإمامة لأن الناس كانوا يسيرون وراءه كما يصلُّون وراء من يؤمُّهم في الصلاة .

ودلَّت الأحاديث الواردة في كتب أهل السنَّة أن الخلافة يجب أن تنحصر في قبيلة قريش، وأنها ستستمر بعد سيدنا محمد لفترة ٣٠ عاماً ، وهي فترة حكم الخلفاء الأربعة : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم تحوَّلت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض (فيه عسف وظلم) وهي فترة تشمل الدولة الأمويَّة والدولة العباسيَّة والدولة الفاطميَّة والدولة العثمانيَّة وغيرها. ويُعتقد أن الدولة ستصبح حكما جبريّاً، ثم ستعود مرة أخرى خلافة على منهاج النبوة حسب المفهوم السني .

عن سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ قال حَدَّثَنِى سَفِينَةُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " الْخِلاَفَةُ فِى أُمَّتِى ثَلاَثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلْكاً بَعْدَ ذَلِكَ ". ثُمَّ قَالَ لِى سَفِينَةُ أَمْسِكْ خِلاَفَةُ أَبِى بَكْرٍ وَخِلاَفَةُ عُمَرَ وَخِلاَفَةُ عُثْمَانَ وَأَمْسِكْ خِلاَفَةُ عَلِىٍّ . قَالَ فَوَجَدْنَاهَا ثَلاَثِينَ سَنَةً "

(صححه الألباني)

قَالَ حُذَيْفَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،

---

(١) أبو الحسن الماوردي " الأحكام السلطانيَّة " ص ٣ .

ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ "

(صححه الألباني)

ونظام الخلافة الإسلاميَّة يجعل جميع البلاد التي فتحها المسلمون ومنها مصر ولايات تابعة لخلفاء المسلمين الراشد منهم والظالم كأنها محافظات في دولة مركزيَّة يتحكَّم في كل شئون الولايات التابعة له ابتداء من تعيين الوالي وعامل الخراج (وزير المالية) حتى التحقيق في شكوى آحاد الرعيَّة ، كما جعل نظام الخلافة الولايات الإسلامية كالأواني المستطرقة(1) يفيض غنيِّها على غَيْض فقيرها ؛ فلا حدود جغرافيَّة سياسيَّة ولا قيود على حركة سكانها ؛ فحريَّة التنقُّل والسفر والإقامة الدائمة أو المؤقتة مكفولة لكل الناس في بلاد الإسلام لكل المسلمين ، وقد نتج عن ذلك انصهار الولايات الإسلاميَّة في دولة الخلافة لذا لا نستطيع القول إن هناك ولاية من الولايات الإسلاميَّة أنشأت حضارة خاصة اعتمدت فيها فقط على عواملها الطبيعيَّة والبشريَّة ، لذا دأب المؤرخون على الحديث عن الحضارة الإسلاميَّة بصفة عامَّة ، ولم يتحدَّثوا قط عن حضارة بغداد أو القاهرة أو خراسان أو مكة ... كحضارات مستقلَّة كالحضارة المصريَّة القديمة ، الحضارة السومريَّة ، الحضارة البابليَّة ، الحضارة الآشوريَّة ، الحضارة الفينيقيَّة ، الحضارة الأكديَّة ، الحضارة الساسانيَّة ... فأصحاب كل هذه الحضارات وغيرها صارت تجمعهم حضارة واحدة في الخلافة الإسلاميَّة ذلك النظام الديني السياسي الذي خضعت له البلاد الإسلاميَّة طائعة أو كارهة أكثر من ألف سنة ، وإن كانت هناك بعض الولايات لها وضع متميز في العلم والثقافة ومظاهر الحضارة كمصر ودمشق وبغداد وقرطبة ... لذا نجد لزاماً علينا أن نتحدَّث ، بإيجاز شديد ،عن الحضارة الإسلاميَّة بصفة عامَّة ثمَّ نتحدَّث عن موقع مصر من تلك الحضارة .

الحضارة الإسلاميَّة

(1) تنص نظرية الأواني المستطرقة على أننا إذا ما وضعنا سائلاً ما في مجموعة أوانٍ يتصل بعضها ببعض فإن المستوى العلوي للسائل سيكون متساوياً في الأواني جميعها، على الرغم من اختلافها في الشكل والحجم .

لقد استفاد المسلمون من مَدَنِيَّة الحضارات السابقة كما استفاد أصحاب الحضارات الأخرى بالحضارة المصريَّة القديمة وغيرها ، فتاريخ العلم يشهد بأن الذين صنعوا الحضارة الإسلاميَّة هم المسلمون من أصحاب الحضارات السابقة يقول ابن خلدون : " إن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضريَّة وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم " (١)

وهكذا قامت الحضارة الإسلاميَّة على أكتاف كل المسلمين فمسلمو العرب فتحوا البلاد ونشروا الدين ، ومسلمو الأمم الأخرى كمصر والشام والعراق والأندلس .. أقاموا صرح الحضارة على هدى الإسلام وتعاليمه ، وبما تعلَّموه من حضارة أممهم والأمم الأخرى من أصحاب الحضارات القديمة ، وكان مسلمو العرب من الذكاء بحيث أبقوا على النظم الإداريَّة والسياسيَّة والماليَّة التي كانت مُتَّبَعة سابقاً في البلاد المفتوحة ذات الحضارة ، كما حافظوا على التقاليد الفنيَّة والصناعيَّة لدى أهلها .

وتعدُّ الحضارة الإسلاميَّة واحدة من أعظم الحضارات التي عرفها العالم " بسبب الدور الذي لعبته في تاريخ الإنسانية ، ففي بوتقة الحضارة الإسلاميَّة التقت حضارات عديدة متباعدة نجحت في اختيار العناصر الصالحة منها ثم مزجت بينها وأكملت نواحي النقص فيها . " (٢)

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٤

(2) د. أحمد عبد الرازق أحمد " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " دار الفكر العربي ص ١١

ولاغرو أن استفادة الحضارة الإسلاميَّة من الحضارات السابقة فهي تعد نفسها الوريثة الشرعيَّة للحضارة المصريَّة القديمة أمِّ الحضارات كما أنها انتفعت بكل العلوم الأخرى التي تتفق وشريعة الإسلام ، فالعلوم العقليَّة كالطبيعة والرياضة والتكنولوجيا [١] لا وطن لها ولا دين " العلوم العقليَّة كالطبيعة والرياضة والطب فأكثر ما تعتمد على معقوليَّة الحقائق وامتحانها إما عن طريق المنطق ، وإما عن طريق تجربة الحقائق وامتحانها عمليّاً ، فإذا ذكرت حقيقة فقلما يعنون بقائلها ، ولكنهم يعنون بوضع قواعد المنطق ، هل من قوانينه ما يؤيدها أو ما ينقضها ، وكذلك يمتحنونها عمليّاً ليرقبوا نتيجتها فيحكموا عليها بالخطأ أو الصواب " [٢]

هل درس المسلمون الحضارة المصريَّة القديمة ؟

والعجيب ألا يذكر المؤرِّخون تأثير الحضارة المصريَّة القديمة في الحضارة الإسلاميَّة الوسيطة وهي أقرب الحضارات إليها .

فهل كان المسلمون من السذاجة بحيث يهملون الحضارة المصريَّة الأم ، وقد فتحوا مصر ، ويتَّجهون إلى غيرها من حضارات وليدة وبعيدة ؟

ألم يحاول المسلمون قراءة الحضارة المصريَّة القديمة وقد أحاطت بهم من كل اتجاه ؟

ألم يستلفتهم – وهم الأذكياء اللمَّاحون – الهرم الأكبر المعجزة الخالدة ؟

ألم يجذبهم التاريخ المصري القديم وهم الذين أرَّخوا لكل الأمم ؟

هل عجزوا عن فكِّ رموز اللغة المصريَّة – لغة حضارتهم –حتى جاء الفرنسي شامبليون لكي يفكَّها لهم ويعلمهم تاريخهم ؟

في عام ٢٠٠٤ م كشف عالم المصريات عكاشة الدالي [٣] أن العرب هم أوَّل من فكُّوا رموز اللغة الهيروغليفيَّة قبل شامبوليون ، ولقد كشف د. عكاشة الدالي في

([1]) التكنولوجيا : التطبيق العملي للعلم ، وجميع ما اخترعه الإنسان من آلات تكونولوجيا سواء أكانت أدوات قديمة كالفأس والساقية والقدوم والمنشار .. أم كانت أدوات وأجهزة حديثة كالتلفون والراديو والكومبيوتر وسفن الفضاء ...

([2]) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ١٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

([3]) عكاشة الدالي عالم مصري استقر في لندن قبل ربع قرن حصل خلالها على الدكتوراه عن رسالة بعنوان (مصر القديمة في المصادر الإسلاميَّة العربيَّة في العصور الوسطى) أثبت فيها أن العرب سبقوا شامبليون

الحوار الذي أجرته معه مجلة " آخر ساعة " عن صفحة مجهولة في كتاب الحضارة الإسلاميَّة الخالدة ؛ فأكدَّ بالأدلة القاطعة معرفة المسلمين اللغة المصريَّة القديمة واستفادتهم من الحضارة المصريَّة القديمة مباشرة فضلاً عما استفادوه مترجماً من الحضارات الأخرى .

في بداية اللقاء أكد الدكتور عكاشة الدالي أن علماء العرب لهم اجتهادات علميَّة كبيرة في مختلف مناحي الحياة العلميَّة سواء في الطب أو العلوم أو الهندسة والفلك وهو ما يعترف به العالم الغربي المستعد دائماً للاعتراف بفضل العرب عليهم وتقدمهم في هذا المجال.. كما لا ينسي الغرب للعرب فضلاً آخر هو الحفاظ علي التراث اليوناني ونقله للأوربيين ولولا جهود العرب في هذا المجال لفقدت إلي الأبد الآداب والعلوم والحضارة اليونانيَّة مع الأخذ في الاعتبار أن العرب لم يكونوا مجرد نقلة لهذه العلوم والمواد العلميَّة للكتابات اليونانيَّة بل تشرَّبوها وأضافوا إليها وطوَّروها .

والغرب إذا كان يعترف بفضل العرب في كل المجالات إلا أنه لا يذكر العرب إطلاقاً ولا المسلمين إذا تعلَّق الأمر بدراسة الحضارة والآثار المصريَّة القديمة بل ويروِّجون لأفكار غير حقيقيَّة هي أن الإسلام يحارب الحضارات ويعتبر أن كل ما سبقه جاهليَّة وأن الإسلام يمحو ما قبله ويكفِّر الدارسين والمهتمين بالحضارات السابقة.. والحقيقة أن الإسلام بريء من هذه الاتهامات ونصوص القرآن صريحة في مجال رفع العلم والعلماء ونصوص القرآن الكريم تحضُّ المسلم علي السير في الأرض والنظر والتفكر في كيفية بدء الخلق وشجع العلم ورفع العلماء علي الذين لا يعلمون.. وأضاف أنه بالرغم من أن الإسلام يأمرنا بالسعي في الأرض ومعرفة كيف بدأ الخلق

في فك رموز الكتابة الهيروغليفية بثمانمائة عام . وقالت لجنة التحكيم إن الرسالة تؤسس لعلم جديد ، وقررت الجامعة الإنجليزية طبع الرسالة ونشرها على نفقتها الخاصة .

ويعتبر د . عكاشة الدالي من أساتذة التاريخ المصري بمعهد بتري للآثار المصرية التابع لكليَّة (ucl) جامعة لندن وهى رابع أهم جامعة في العالم طبقاً للتصنيف الدولي .

ألقى د. عكاشة الدالي عدة محاضرات في مصر، وبريطانيا، وهولندا، والسويد، والولايات المتحدة؛ كما يقوم بتنظيم الرحلات العلمية إلى مصر. قام بترجمة كتاب موريس بيربراير (بناة مقابر الفراعنة) إلى العربية تحت عنوان (صناع الخلود)، كما ترجم كتاب جيفري سبنسر (مصر في فجر التاريخ: مشرق الحضارة في وادي النيل)؛ وصدر له عام ٢٠٠٤ عن جامعة يونيفرستى جامعة كوليدج(علم الآثار المصرية، الألفية الغائبة: مصر القديمة في المصادر العربية الوسطى) . راجع الحوار الذي أجراه نجاد فكري لموقع البدرشين اليوم مع د. عكاشة الدالي .

نجد هناك من يحاول خلق الصراع بين المسلمين والحضارة الفرعونيَّة بالرغم من عدم وجود صراع بين الحضارتين فنحن أبناء الحضارتين نعيش كمسلمين نعلم تماماً تعاليم ديننا ونزهو بحضارتنا القديمة التي امتدت إليها الحضارة الإسلاميَّة .

وأكَّد الدكتور عكاشة الدالي علي عدم وجود أي صراع بين كوني مسلماً متحمِّساً للإسلام ومهتمّاً بالحضارة المصريَّة القديمة أو تناقض بين اهتمامي باللغة العربيَّة أو اللغة المصريَّة القديمة 'الهيروغليفيَّة' وبنظرة فاحصة للتاريخ العربيِّ الإسلاميِّ في مصر نؤكد أن المسلمين في القرون الوسطي أخذوا علي عاتقهم القيام بدراسات علميَّة مكثَّفة لكل ما سبقهم من حضارات وعلي رأسها الحضارة المصريَّة القديمة كما كان لهم السبق في اكتشاف مغاليق الكتابات المصرية القديمة وعلي رأسها اللغة الهيروغليفية وذلك قبل شامبليون نفسه بمئات السنين وعندي الدلائل الكثيرة عن هذا الموضوع وقد سجلتها في رسالتي للدكتوراه والتي حصلت عليها وكانت بعنوان "مصر القديمة في الكتابات الإسلامية والعربية في العصور الوسطي .

واستطرد .. أما الدليل عن المبحث الأول وهو اهتمام العرب والمسلمين بالدراسات الأثرية فواضح حيث إنَّ المعابد المصريَّة القديمة أغلبها كان قائماً عند الفتح الإسلامي وحرص العرب الأقدمون علي زيارة الآثار المصريَّة .

الشريف أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي المتوفى عام ١٢٥١م وهو فقيه ومحدِّث ورث العلم عن والده فقد قام بتأليف كتاب يعد من أهمِّ الكتب العلميَّة عن تاريخ الأهرام وعنوانه " أنوار علوم الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام " وهو عبارة عن رسالة من سبعة فصول ناقش فيها الطريق إلي الأهرام وسبب بناء الأهرام ومتى تم بناؤها والوظائف المرتبطة ببنائها والذين زاروا الأهرام وهي دراسة عظيمة جداً استخدم في مصادره لهذه الدراسة مالا يقل عن ١٣٠ كتاباً ٣٠ كتاباً منها علي الأقل له علاقة مباشرة بموضوع الدراسة.. الأهرام والشريف الإدريسي، له ٣ كتب مكرَّسة لتاريخ مصر القديمة منها كتاب " الجوهرة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة " . وهذا بالطبع يؤكد أن الإسلام لم يقف أبداً أمام علوم الآثار والحضارة المصرية وإلا ما بقيت هذه الآثار وما كان لفقيه محدث متبحِّر في علوم الفقه والحديث الشريف أن

يكرِّس حياته لدراسة وكتابة تاريخ مصر القديمة وهو ما ينفي شائعة أن المسلمين ليس لهم اهتمامات وأنهم يرفضون دراسة الحضارات القديمة بصفتها وثنية .

ويضيف د.عكاشة الدالي بأن العرب والمسلمين إذا كان لهم باع كبير في دراسة الآثار والحضارة المصريَّة فإنه يحسب لهم السبق في حل سر اللغة المصريَّة القديمة وخاصة الهيروغليفية وقد نجح في هذا المجال العديد من العلماء العرب ويأتي علي رأسهم العالم العربي أيوب بن سلمة من القرن التاسع الميلادي والذي يقال إنه اصطحب الخليفة العباسي المأمون حين زار مصر عام ٨١٦ م وقرأ له الكتابات المصرية الموجودة علي الآثار المصرية سواء في عين شمس أو الأهرام وجاء من بعد أيوب بن سلمة العالم الصوفي الكبير ذو النون المصري الذي كان يقرأ الكتابات الفرعونية التي علي جدران المعابد .

ثم جاء بعدهما العالم العراقي ابن وحشية الذي زار مصر في القرن العاشر الهجري وكان أحد علماء الكيمياء إلا أنه كتب رسالة علمية قيمة جداً وعلي درجة كبيرة من الأهمية تحدث فيها بالتفصيل عن الكتابة الهيروغليفية وتمكَّن لأول مرة أن يعطينا صفحات فيها ترجمة للحروف الهيروغليفية ولم يكتف بذلك بل توصل إلي ما يعرف في اللغة بالقيمة الصوتية للحروف وذكرها كما تمكَّن من إدراك أن بعض هذه الأشكال ما أسماه بالمخصصات وهي عبارة عن أشكال تضاف إلي الحروف لتوضح معني وتوضع بعد نهاية الكلمة وهذا اللفظ مخصصات يتم استخدامه في التعبير عن الكتابة الفرعونية حتى الآن وهذا إنجاز علمي غير مسبوق وهو أول عالم في التاريخ يصل إلي هذا الاكتشاف .

والشيء الجميل أن العالم الكبير ذكر في أحد كتبه أنه من أراد التوسع في موضوع الدراسات اللغويَّة فليرجع إلي كتاب حل الرموز للعالم الفقيه جابر بن حيان الصوفي والمعروف بأنه مؤسس علم الكيمياء والجبر ولكن ما يهمني كباحث في اللغة أن أذكر أن جابر بن حيان زار مصر وتحدث عن معبد دندرة وزيارته للكريبت (السرداب) المشهور تحت المعبد عن تعليمه وتلقيه العلم في دندرة وهو ما ذكره ابن وحشية في كتابه المفقود ويؤكد فيه أن ابن حيان زار المعبد وتلقي العلم فيه .

والجدير بالذكر في هذا المجال أن العلماء العرب كانوا يحرصون علي دراسة اللغات الأخرى خاصة اللغة اليونانية والفارسية والتركية والقبطيَّة ورغم علمهم بأن العلوم اليونانيَّة ترجمت إلي العربية والسريانية إلا أنهم حرصوا علي معرفة اللغة اليونانيَّة وكثير من العلماء تخصصوا فيها مثل : الكندي ،والفارابي ،والبيروني الذي كان يجيد اليوناني ،والفارسي ،والتركي ،وسنسكريت وهي لغة الهند القديمة وله كتاب مشهور في وصف الهند .

ولوجود كثير من الكتابات المصرية القديمة كتبت في العصر المتأخر بالديموطيقي وأحياناً تجد نفس النص مترجماً بالقبطي أو اليوناني كما هو الحال في المسلة الناقصة التي كانت في معابد فِيلَة التي اقتطعها بانكس عالم الآثار وموجودة حالياً في دوبست بانجلترا وعليها نصوص لأربع لغات وكذلك تمثال داريوس أيضاً باللغات الأربعة ولدينا عشرات القطع عليها نصوص بأكثر من لغة كما هو الحال مع حجر رشيد ولأن العلماء العرب كانوا علي دراية باليونانية والقبطيَّة فقد استطاعوا أن يتعرفوا بسهولة علي اللغة المجهولة سواء أكانت ديموطيقية أم هيروغليفية .

سألت الدكتور عكاشة تري ما هو دور شامبليون وإنجازه العلمي المنسوب إليه؟ فأجابني بقوله إن الإنجاز العلميَّ لشامبليون إنجاز عظيم جداً ونحن مدينون بكل الفضل له فهو كثير وليس في اللغة فقط بل له دراسات أخري كثيرة ولكن ما أود ذكره أن شامبليون ليس أول من فك رموز اللغة المصرية القديمة ولكنه أول أوربي ينجح في ذلك وقد سبقه العرب وهو ما أكدتُّه من خلال بعض المخطوطات التي عثرتُ عليها وحققتُها من خلال رسالتي العلمية التي تناولت من خلالها عدة مئات من المخطوطات ولكن يوجد هناك عدة آلاف من المخطوطات لم أدرسها ولم أعثر عليها ولدي إحساس كبير أن الذي استطاع أن يقرأ الكتابة المصرية لابد أن يكون قد توصَّل لحقيقة حروفها .

وأكد الدكتور عكاشة الدالي أن مصر كانت مصدر إشعاع فكريٍّ وعلميٍّ وأدبيٍّ لأوربا في العصور الوسطي وأن الدارسين العرب واليونانيين كانوا يترددون علي معابدها وأديرتها للنهل من علومها حتى هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا حيث يقول: مصر بلد الأطباء أحكم بلاد العالم .

ونحن إن كنَّا نشكر للدكتور عكاشة دراساته المصرية القديمة ، ودفاعه عن العلماء المسلمين الذين سعوا إلى فك رموز اللغة المصريَّة القديمة ، فكثير مما جاء في مقالاته وكتبه يحتاج إلى مزيد من الدراسة ، والبحث ؛ لأن دعواه بمعرفة المسلمين قبل شامبليون باللغة المصريَّة القديمة ، وقراءتهم الوثائق المصرية القديمة دعوى تحتاج إلى مزيد من الأدلة والبرهان ، ولكن لا يعني هذا أن ننكر على بعض العلماء العرب سعيهم لدراسة الحضارة المصريَّة القديمة ، وفك رموز لغتها.

ولم يكن للحركة العلميَّة – إبان مجد المسلمين – أن تزدهر إلا إذا كان وراءها تشجيع من الخلفاء ، وولاة الأمر فقد " فتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء وتنافس الخلفاء والحكام في رعاية العلم والعلماء وتسابقوا في الإنفاق في سخاء على العلم والعلماء ، وقبل الرشيد الجزية كتباً ، كما دفع المأمون وزن ما ترجم ذهباً ، وقبل إنشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ، ومنازل العلماء ودور كتب المساجد بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض ، وجاء وقت كان كل طالب علم يجد معهداً يتعلم فيه ، ومُعَلِّماً يقوم على تعليمه ، وراتباً يقوم بأوده ، وكان الجامع المنصور في بغداد ، والجامع الأموي في دمشق ، والجامع الأزهر في القاهرة ، وجامع القيروان بتونس ، وجامع القرويين في فاس ، وجامع قرطبة بالأندلس ، والجامع الكبير بصنعاء إلى جانب بيت الحكمة في بغداد، ودار العلم في الموصل ، ومكتبة ابن سوار بالبصرة ، كانت في رعاية الخلفاء الحكام من أمثال المأمون ونظام الملك ونور الدين محمود زنكي والحاكم بأمر الله وصلاح الدين الأيوبي ممن يوضعون على القمة من حيث رعاية العلم والعلماء .

وفي هذه البيئة العلميَّة الصالحة ، وفي هذا الجو العلمي الحافل ، نشأ عدد من العلماء يقرنون إلى أعاظم العلماء في كل عصر وأوان ، وكانت العربيَّة لغة العلم يكتب بها العلماء ليقرأ الناس في أي صقع من أصقاع الوطن العربي الإسلامي ، وازدهرت حركة الترجمة أيما ازدهار ، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلميَّة ، نقلوا علوما وابتكروا أخرى وأضافوا كثيرا من الآراء والنظريات التي نسبت إلى غيرهم " (١)

---

(١) د. عبد الحليم منتصر " أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية " الهيئة العانة للكتاب ص ١٨٤–١٨٥

أسس بناء الحضارة الإسلامية

وبناء على ما سبق يتبيَّن لنا الأسس التي بنيت عليها الحضارة الإسلاميَّة وهي كالتالي : أسباب تعود إلى الإسلام نفسه ، وأسباب تعود إلى المسلمين .

١- دين قويم عمل على توحيد العرب والمسلمين ، ونزع من نفوسهم أدران الشرك والعصبيَّة الجاهليَّة ، والسمات السلبيَّة .

٢- دعوة الإسلام إلى التفكير والإبداع وإعمال العقل ، ذم التقليد والتكرار واتباع الهوى .

٣- دعوة الإسلام للتفكر في الآفاق وفي النفس ،وهما مجال البحث العلمي الحديث.

٤- دعوة الإسلام لدراسة سير الأمم السالفة واستخلاص العبرة منها .

٥- ربط الإيمان بالعمل الصالح الذي يعني كل عمل يعود بالنفع على الإنسان أو غيره سواء أكان دينيّاً أو دنيويّاً .

٦- الانفتاح على الحضارات الأخرى وترجمة علومها ومعارفها وفنونها إلى العربيَّة .

٧- تشجيع الخلفاء والأمراء العلم والعلماء ، والإنفاق عليهما بسخاء .

٨- علو منزلة العلماء بين الناس بفضل تعاليم الدين الإسلامي الذي رفع درجتهم ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، وجعل تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

٩- إنشاء المدارس والجامعات والمكتبات ودور العلم وجعلها جميعاً بالمجان لطلاب العلم والمعرفة .

١٠- الإنفاق على طلاب العلم وتأمين معاشهم ، وإتاحة حرية السفر لهم.

١١- عدم الحجر على آراء العلماء ، وفتح باب الاجتهاد أمامهم واسعاً .

١٢- أدب الاختلاف ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وعدم الاحتكام للعنف في نشر العلم .

موقع مصر من الحضارة الإسلاميَّة

لمصر موقع متميز في الإسلام ، كما بيَّنا ، قبل أن يفتحها المسلمون وتأكَّد هذا التميز بعد أن فتحها المسلمون وأسلم معظم أهلها ونترك الحديث لعالم إسلامي غير مصري ليحدثنا عن مكانة مصر في الإسلام ودورها في الحضارة الإسلاميَّة .

ألقى الشيخ محمد بن عبد الرحمن العريفي خطبة عدَّد فيها فضائل مصر في مسجد البوادي بالسعودية بتاريخ ١٤ ديسمبر ٢٠١٢ وقد اعتمد في هذه الخطبة على مقالات صديقه العزيز الباحث السعودي د. محمد موسى الشريف التي نشرها في مجلة المجتمع تحت عنوان " فضائل مصر ومزايا أهلها " .

وفيما يلي عرض لأهم ما جاء في هذه الخطبة التي ذاعت في الآفاق وتقبَّلها المصريون بقبول حسن وأكبروا صاحبها . بدأ العريفي خطبته بقوله : " شهادة في بلد الأنبياء، إنها شهادة في مسكن العلماء إنها رسالة إلى بلد العلم والجهاد ، إنني أتحدَّث اليوم عن أمِّ الدنيا، دعوني اليوم أتحدَّث عن مصر .. إنه من شاهد الأرض وأقطارها والناس أنواعاً وأجناساً ، ولا رأى مصر ولا أهلها فما رأى الدنيا ولا الناس ، هي أمُّ البلاد وهي أمُّ المجاهدين والعُبَّاد قهرت قاهرتها الأمم ووصلت بركاتها إلى العرب والعجم، هي بلاد كريمة التربة ، مؤنسة لذوي الغربة، فكم لمصر وأهلها من فضائل، ومزايا، وكم لها من تاريخ في الإسلام وخفايا منذ أن وطئتها أقدام الأنبياء الطاهرين ومشت عليها أقدام المرسلين المكرمين والصحابة المجاهدين ..

إذا ذَكَرْتَ المصريين ذَكَرْتَ الكعبة والبيت الحرام فإن عمر رضي الله تعالى عنه، أرسل إلى عامله في مصر أن يصنع كسوة للكعبة المشرفة ، فصُنِعَتْ الكسوة من عهد عمر رضي الله عنه وظلَّت كسوة الكعبة تصنع هناك في مصر سنة تِلْوَ سنة حتى مرَّ أكثر من ألف سنة وكسوة الكعبة تُرْسَل من مصر إلى مكة ولم يتوقف ذلك إلا قبل قرابة المائة سنة .

سأخطب عن كوكبة العصر، وكتيبة النصر وديوان القصر، سأتكلم عن أمِّ الحضارة وأمِّ المهارة ومنطلق الجدارة ، نعم سأخطب عن أرض العِزَّة وعن بلاد القطن ..

إنَّ مصر أيها المسلمون هي الأرض الطيبة التي قال الله تعالى عنها لما طهَّرها سبحانه من فرعون وقومه مدح الله تعالى مصر فقال : { كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ } [الدخان : ٢٥ –٢٧]

إن مصر فيها خزائن الأرض بشهادة ربنا جلَّ وعلا لما قال عن يوسف عليه السلام : { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف : ٥٥] ولم

يذكر الله تعالى قصة نهر في القرآن إلا نهر النيل قال جلَّ وعلا : { أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [القصص:٧] يعني في نيل مصر .

قال الكندي : " لا يُعلم بلد في أقطار الأرض اثني الله تعالى عليه في القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه الله بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر " ..

نعم إنني أتكلم عن مصر ، وصَّى النبي ﷺ الأمة كلها بمصر وبأهلها فقال بأبي هو وأمي : " إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا أَوْ قَالَ ذِمَّةً وَصِهْرًا " [رواه مسلم]

فهي وصيَّة للأمَّة كلها لكلِّ من تعامل مع المصريين أنْ يحسن إليهم وأنْ يكرمهم وأنْ يعرف قدرهم وأنْ يقف معهم عند حاجتهم وأنْ ينصرهم عندما يؤذون، الهدية إليهم من أفضل الهدايا ، وأذيتهم من أعظم الرزايا ،ولم يكتف نبينا ﷺ بمدح مصر وأهلها بل أمر بالإحسان حتى إلى أقباطها فقال ﷺ : " الله الله في قبط مصر فأنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله " [رواه الطبراني وصححه الألباني]

أيها المصريون : الإسلام فيكم وَجَدَ أعياده.. وكنتم يوم الفتح أجناده.. وكنتم عام الرَّمادة مِدَاده .. وأحرقتم العدوان الثلاثي وأسياده.. وحطمتم خط بارليف وعتاده .. وكنتم يوم العبور أسياده وقواده .. يا أهل مصر.. يا أهلي ويا مشايخي ويا من أخذْتُ عنهم الأسانيد في قراءة القرآن.. يا أصحابي إنَّ في أرضكم الوادي المقدس طُوَى، وفيها الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام، وفيها الجبل الذي تجلَّى الله سبحانه إليه فانْهَدَّ الجبل دكّاً ، وهي مَبْوَء الصدق الذي قال الله تعالى عنه : { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [يونس:٩٣] .

وفي أرضكم يجري نهر النيل المبارك الذي ينبع من أصله من الجنة ، قال عليه الصلاة والسلام : " سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ "

[رواه مسلم]

وفي أرض مصر الرَّبْوَة التي أَوَى إليها عيسى عليه السلام وأمَّه قال جل وعلا: { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}

[المؤمنون : ٥٠]

وعلى أرض مصر ضرب موسى عليه السلام بعصاه فانفلق الحجر له ماءً وانشق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم .

نعم إنها مصر.. إذا أردت القرآن وتجويده فالتفت إلى مصر .. إذا أردت اللغة والفصاحة فإنك تنتهي إلى مصر .. إذا أردت الأخلاق الحسنة وحلاوة اللسان وحلاوة التلاوة والقرآن فالتفت لزاما إلى مصر .. إننا لا نتحدث عن بلد عادي، إننا نتحدث عن بلد عظيم القدر جليل الجناب أشار الله تعالى لِكَبِر مصر، وأشار لِعِظَم مساحتها فقال جل وعلا : { فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } [الشعراء : ٥٣]

قال عمر بن العاص رضي عنه : " ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة " يعني أنَّ كلَّ بلاد الإسلام في كِفَّة، وإنَّ الذي يَلِي على مصر يكون أخذ الكِفَّة الأخرى .

وقال سعيد بن هلال : " إنَّ مصر أمَّ البلاد وغَوْث العباد ، إنَّ مصر مُصَوَّرة في كتب الأوائل وقد مدت إليها سائر المدن يدها تستطعمها وذلك لأن خيراتها كانت تفيض على تلك البلدان " .

قال الجاحظ : " إنَّ أهل مصر يستغنون بما فيها من خيرات عن كل بلد حتى لو ضُرِبَ بينها وبين بلاد الدنيا بسور ما ضرهم " وفي مصر رباط الإسكندرية الذي رابط فيه العلماء، والزُّهاد والعُبَّاد ،والمجاهدون والأبطال والشجعان .

قال أبو الزناد صاحب أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : " خير سواحلكم رباطاً الإسكندرية "

وعند المصريين جامع عمر بن العاص صاحب رسول الله ﷺ وهو أوَّل جامع بُنِيَ في قارة إفريقيا وقد ضَبَطَ قبلته جماعة من الصحابة قُدِّرُوا بثمانين صحابيٍّ اجتمعوا عنده عند بنائه وقَدَّرُوا قبلته ، وعند المصريين جامع الأزهر الذي له الفضل لمشهور، العلم المنثور والتقدم الكاسر، والارتفاع القاهر، العلماء فيه متكاثرون، والعُبَّاد فيه قائمون والزُّوار إليه متوافدون .

مصر قادت الأمَّة الإسلاميَّة أكثر من ٢٦٥ سنة كانت الخلافة في مصر من بعد انقطاع الخلافة من بغداد في عام ٦٥٦ هـ إلى انتقال الخلافة إلى العثمانيين بتركيا

في عام ٩٢٤ هـ بينهما أكثر من ٢٦٥ سنة كانت الخلافة في مصر وهي التي تقود بلاد الإسلام .

أمَّا أهل مصر فيكفيهم شرفٌ وفخرٌ أنَّ الله تعالى اختار منهم الأنبياء وجعل الله تعالى الأنبياء يسكنون بين ظهرانيهم، فهذا الخليل إبراهيم شيخ الموحدين، وجدُّ خاتم النبيين أتى مصر مع زوجه سارة وتزوج هاجر المصريَّة، وهذا يعقوب عليه السلام دخلها مع أبنائه الأنبياء فيها تُوُفُّوا ودُفِنُوا فيها ، وهذا يوسف عليه السلام سكن مصر وحَكَم فيها وتُوُفِّي ودُفِنَ فيها، وهذان موسى وهارون –عليهما السلام وُلِدَا في مصر وعاشا فيها، وهذا يُوشَع بن نون وُلِد في مصر وعاش فيها ، وهذا الخَضِر ، وهذا أيوب وأشعيا وأرميا –عليهم أفضل الصلاة والسلام – كلهم دخل مصراً ومنهم من مات فيها .

وقد ضرب الله تعالى أبطال مصر أمثلة في كتابه فمن المصريين مؤمن آل فرعون البطل الثابت على الحق الذي قال الله جلَّ وعلا عنه : { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ .. } [غافر:٢٨] وهو مصري الرجل المؤمن الذي حذَّر موسى عليه السلام {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } [القصص:٢٠]

ومن المصريين السَّحَرَة الذين ذكر الله تعالى قصتهم لمَّا آمنوا وصدَّقوا وكانوا في أوَّل النَّهار سَحَرَة فَجَرَة، وصاروا في آخر النَّهار شُهَدَاء بَرَرَة .. إنها بلاد الأبطال .

أمَّا نساء مصر فيكفي المصريات فَخْراً ، وعزّاً ، وشَرَفاً أنَّ سيِّد الأنبياءﷺ كانت جَدَّته هاجَر مصريَّة، وأمُّ ولده مارية مصريَّة، ويكفي المصريات فَخْراً أن ماء زَمْزَم تفجَّر إكراماً لامرأة مصريَّة ولابنها، ويكفي المصريات فَخْراً أنَّ هاجَر المصريَّة عندما سَعَتْ بين الصفا والمروة خلَّد الله تعالى فعلها، وأمر الأنبياء وسائر الأولياء والحُجَّاج والمُعْتَمِرِين بأنْ يسعوا كسعيها .

ويكفي المصريات فَخْراً أنَّ أمَّ موسى عليه السلام مصريَّة، وأنَّ آسيا امرأة فرعون مصريَّة، التي قال الله عنها : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ

ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [التحريم:١١]

ويكفي المصريات فَخْراً أنَّ المرأة الصالحة التي كانت ماشطة لبنت فرعون كانت مصريَّة، وقد قال نبينا ﷺ : " لما كانت الليلةُ التي أسري بي فيها وجدتُ رائحةً طيبةً فقلتُ : ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل ؟ قال : هذه رائحة ماشِطَة بنت فرعون وأولادها " [رواه الحاكم وصححه]

أيها الناس : إنَّ أهل مصر هم من أَلْيَن الناس تعاملاً وأحسنهم أخلاقاً وأدباً ، قال تاج الدين الفزاري : " من أقام في مصر سنة واحدة وجد في أخلاقه رقَّة وحسناً "

وقال ابن ظهيرة عن أهل مصر : " حلاوة لسانهم وكثرة مودتهم للناس ومحبتهم للغرباء ولين كلامهم وحسن فهمهم للشريعة، مع حسن أصواتهم وطيب نغماتهم وشجاها، وطول أنفاسهم وأعلاها، فَمُؤَذِّنُوهم إليهم الغاية في الطيب ووعَّاظهم إليهم المُنْتَهى في الإجادة والتَّطْرِيب ، ونساءها أرَقُّ نساء الدنيا طبعاً ، وأحلاهن صورة ومَنْطِقاً وأحسنهن شمائل، وأجملهن ذاتاً ، ومازلت اسمع قديماً عن الشافعي إنَّه قال : " من لم يتزوَّج بمصريَّة لم يَكْمُل إحْصانُه " .

أيها المسلمون : ولقد سكن مصر بعد فتحها جماعة من صحابة سيدي رسول الله ﷺ حتى لمَّا أُحْصِيَ عدد الصحابة الذين دخلوا مصر، أو سكنوا فيها، أو زاروها أو حكموها أو دَفِنُوا في ترابها فَتَعُّدوا أكثر من ٣٥٠ صحابيٍّ .

كلهم قد أَتَوْا إلى مصر منهم من جاءها رسولاً إليها أو حاكماً لها، أو مجاهداً فيها أو مُعَلِّماً لأهلها منهم عمرو بن العاص، عبد الله بن أبي السرح، عبد الله بن عمر، وكلهم قد وَلُوا مصر، منهم جابر بن عبد الله بن حرام ،ومنهم الزبير بن العوام وعبد الله بن الزبير، منهم سعد بن أبي وقاص ومنهم عبادة بن الصامت وعبد الله بن عباس وعمَّار بن ياسر، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو ذر الغِفَاري، وأبو الدرداء ، وأبو هريرة، عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي وهو آخر صحابي مات بمصر .

٣٥٠ صحابيّاً تخيَّرتُ أَبرزهم لكن كلهم قد سكن مصر أو زارها، في مصر ولد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى .

أيها المسلمون : إذا تكلَّمنا عن مصر فإننا نتكلَّم عن بلاد العلماء الذين وصل أثرهم إلى كل الدنيا، منهم صحابة كِرَام وتابعون أَعْلام ، منهم الليث بن سعد وهو إمام المصريين ،الذي قال فيه الشافعي : " الليث بن سعد أعلم من مالك " ومنهم القارئ " وَرْش " ، إذا سمعت من يقول على قراءة " وَرْش " فاعلم إنَّه مصريٌّ .

اليوم أكثر أهل لإفريقيا وأهل المغرب يقرءون بقراءة هذا المصريِّ ومنهم ، ومنهم الشافعي الإمام وله أئمة كُثُر كلهم من طلابه وكلهم من المصريين، ومنهم سعيد بن كثير بن عفير وكان إمامًا عالماً ، قال عنه يحيى بن مَعِين إمام الجرح والتعديل لما سؤل عن مصر قال : " رأيت في مصر ثلاث عجائب : النيل، والأهرام، وسعيد بن كثير بن عفير " وكان عالماً إماماً .

ومنهم عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ومنهم الإمام الطحاوي الذي أَلَّف العقيدة الطحاوية وهي تدرس اليوم في كل الدنيا وتدرسها الجامعات هنا في المملكة العربية السعودية ، ومنهم الإمام بن النحاس والقاضي عبد الوهاب المالكي، وشيخ الحنابلة الحافظ عبد الغني المقدسي، فإذا ذكرت الحنابلة وذكرت الفقه الحنبلي رجعت لِزاماً إلى عبد الغني المقدسي وكان قد خرج من الشام وسكن في مصر .

ومنهم الإمام البطل العز بن عبد السلام ومنهم ابن خَلَكَان صاحب وفِيَّات الأَعْيان، ومنهم والقارئ العظيم الذي تحفظ منظومته طلاب وطالبات كُثُر في أنحاء الدنيا الإمام الشاطبي ، ومن الذي لا يعرف الشاطبي وهو الذي أَلَّف منظومة في ألف بيت في تلاوة القرآن وقراءته .

ومن المصريين مُؤَلِّف كتاب " الترغيب والترهيب " عبد العظيم المُنْذِرِيّ ، ومن المصريين الإمام القِرَافِيّ وهو من أذكياء العالم، ومن أئمة الدنيا ومن أعيان المذهب المالكي ومن المصريين " ابن دَقِيق العِيْد " الذي لم تر الدنيا مثله أبداً ، ومنهم خليل المالكي إذا سمعت " بمختصر خليل" الذي يُعَوِّل عليه المالكية اليوم في دروسهم وجامعاتهم فاعلم إنَّه مصريٌّ ،ومنهم ابن هشام النحوي ومنهم الإمام الهيثمي صاحب كتاب " مجمع الزوائد " ومنهم ابن حَجَر العَسْقَلاني الذي أَلَّف " فتح الباري في شرح صحيح البخاري " ومنهم محمود العيني الذي أَلَّف " عمدة القاري في شرح صحيح البخاري " .

ومنهم المقريزي (شيخ المؤرخين المصريين وصاحب كتاب " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " المعروف باسم خطط المقريزي) والإمام صاحب كتاب " تفسير الجلالين " الإمام جلال الدين المحلي الذي أتمَّه بعد ذلك الإمام السيوطي وكلاهما مصري ومنهم الحافظ السيوطي ومنهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (القاضي والفقيه والمحدِّث والمفسِّر) ومنهم الشيخ أحمد الدردير وكان عبداً علماً صالحاً .

أما أبطال مصر ومجاهدوها فالكلام عنهم يَطُول كثير من القادة مع صلاح الدين الأيوبي كانوا من المصريين منهم القائد: حسام الدين لؤلؤ كان قائداً للأسطول البحري المصري، كان شوكة في حلق الفرنجة . قال عنه الإمام ابن كَثِير : كان البحر في البحر فَكَمْ من شجاع أسر، وكَمْ من مَرْكَب انكسر، وكَمْ من أسطول فرَّق شمله، وقارِب غرق أهله مع كثرة الصدقات، قال : ولمَّا عمل إرناط الصليبي مراكب وأسطول، وجعلها في البحر الأحمر ليغزو مدينة –رسول الله صل الله عليه وسلم– انطلق إليه حسام الدين بأسطوله المصري ودكَّ أسطول الفرنجة حتى قتلهم عن آخرهم ومن أبطال مصر الذين سكنوها صلاح الدين الأيوبي الذي فتح بيت المقدس .

أيها الناس : بل أيتها الدنيا كلها لن ينسى التاريخ أبطال مصر الذين ردُّوا الحملة الصليبية التي قادها ملك فرنسا واستولى على دمياط فَكَمَن له أبطال مصر وأذاقوه سوء العذاب ، وأبادوا جيشه وكانوا عشرات الآلاف ثم اخذوا هذا القائد الفرنسي (لويس التاسع) وحبسوه في دار تسمى دار ابن لقمان في المنصورة ووضعوا القيود في يديه ورجليه، ووكلوا به حارس يسمى صبيح ثم فَدَى نفسه بأموال كثيرة عظيمة.

ومن المصريين الأبطال سلطان المماليك قطز، وهو الذي قاد معركة عين جالوت، ومن المصريين الأبطال ضباط وجنود شاركوا في حروب فلسطين وغيرها من مواضع الجهاد في سبيل الله .

وإذا ذَكَرْتَ مصر وتاريخها ذَكَرْتَ العُبَّاد والزُّهاد، ذكرت حَيْوَة ابن شريح (الإمام، الفقيه، شيخ الديار المصريَّة، الزاهد العابد ، الثقة في الحديث) ، وذكرت ابن محمد بن سهل وكان عابداً صالحاً آمراً بالمعروف داعياً إلى العقيدة الصحيحة (

ومنهم ثَوْبان بن إبراهيم، "ذو النون"، أحد أعلام التصوُّف في القرن الثالث الهجري ومن المحدثين الفقهاء) .

وفي مصر أيها المسلمون من الأدباء والكتاب والشعراء أعداد لا يُسْتَهان بها ممن زاروها أو كانوا من أهلها ، فإذا قرأت الشعر الرائق لجميل بثينة وهو من أفصح الشعراء فاعلم إنَّه مصريٌّ ، وإذا قرأت الشعر الرائق لكُثيِّر عَزَّة ،واعلم إنَّه مصريٌّ وإذا قرأت للشاعر الشهير المتنبي أحمد بن الحسين فاعلم إنَّه أقام بمصر ٤ سنوات .

إنك تتكلم عن بلد عظيم لا يزال له إلى اليوم ما يُؤَمَّل له قيادة للأمة ومن السير على منهاج أجدادك من صحابة رسول الله ﷺ .

المصريون لا تكاد تجد من القُرَّاء في العالم من قُرَّاء القرآن وممن معهم إجازات وأسانيد إلى رسول الله ﷺ في حفظ القرآن، إلا وجدت للمصريين عليه يَداً . إمَّا أَقْرَأهم مصريٌّ أو حَفِظَ القرآن على مصريٍّ أو ضَبَطَ تَجْوِيده مصريٌّ أو كتب له هذا السَّنَد مصريٌّ، وما تكاد تجد إلى اليوم حتى المشايخ والعلماء في الأرض كلها إلا تجد منهم من قرأ على مصريٍّ، أو درَّسه في الجامعة مصريٌّ أو صلَّى به إماماً يوماً من الأيام مصري ، ولا ينكر فضل هؤلاء العلماء أحد ، مدرسوها وأساتذتها لهم فضل كبير على العرب وعلى المسلمين بل على جميع العالم في مساجدهم وجامعاتهم ومدارسهم، ولمصر من العلماء في الطِّب وفي الذَّرة وفي الهندسة وفي الدَّعوة وفي الأدب وفي غير ذلك أمر لا يُدْرك شئوه أبداً ."

ونشكر للشيخ العريفي وغيره حبهم مصر ومعرفتهم منزلتها واعترافهم بفضلها ولكن الحقيقة أن كثيراً من العلماء الذين ذكرهم العريفي في خطبته ليسوا مصريين خُلَّص فبعضهم قد وُلِد في غير مصر ثمَّ رحل إليها وبقي فيها زمناً وربما رحل عنها بعد ذلك ودُفِن في بلد آخر ، وهكذا كان العلماء المسلمون إبان الخلافة الإسلاميَّة كل بلاد المسلمين بلادهم ؛ يولد في بلد ويرحل في سبيل العلم إلى بلد آخر (أو بلاد) وينبغ في بلد ثالث وقد يموت في بلد رابع .

يقول احمد أمين : " كانت المملكة الإسلاميَّة في سهولة انتقال العلماء من مكان فيها إلى مكان ، كأنها رقعة شطرنج وهم بيادقها (عساكرها) ، فترى العالِم في

المشرق فإذا هو في الأندلس ، وفيما هو في الأندلس إذا هو في العراق ، وفيما هو في العراق إذا هو بمصر والشام ؛ لا يعوقهم فقر ، ولا يفتُّ في عزمهم صعوبة الطريق وأخطاره ، سواء عليهم الصحراء وحرها ، والبحار وأمواجها ، إذ تغلغل في نفوسهم اعتقاد أن طلب العلم جهاد ، فمن مات في سبيله مات شهيداً " (١)

علماء مصر زمن الحضارة الإسلاميَّة

ودونك ترجمة موجزة لأهم علماء مصر الذي ساهموا في الحضارة الإسلاميَّة بجهد وافر .

الليث بن سعد (٩٤ – ١٧٥ هـ)

ولد في قرية مصريَّة سنة ٩٤هـ اسمها قلقشندة وتعلَّم على شيوخ مصر ، ثمَّ رحل إلى الحجاز وسمع من شيوخها ، ثم رحل إلى العراق وسمع علماءها ، وكان غنيّاً ثريّاً ، وناحيته العلميَّة كناحيته الماليَّة غزيرة فيَّاضة ، والمحدَّثون يثقون بحديثه كلَّ الثقة ، روت عنه كل الكتب الستة الصحيحة قال فيه أحمد بن حنبل : "ما في المصريين أثبت من الليث .. ما أصحَّ حديثه" ، وقدرته الفقهيَّة قدرة فائقة فهو يقرن بمالك ، بل يقول الشافعي : " الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به " وفي الواقع لو تعصَّب المصريون لمن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه ، ولكانوا أتباعه ، وكان مما أعان على ذلك أنه لم يدوِّن مذهبه في كتب ، ولم يرزق بأصحاب كما كان أبو يوسف ومحمد لأبي حنيفة ، والبويطي والمزني والربيع للشافعي فضاع مذهبه . طلبه الخليفة المنصور للقضاء فأبى ، وكان له المنزلة الكبرى عند الأمراء يستشيرونه في مهام الأمور جاء في النجوم الزاهرة : " كان الليث كبير الديار المصريَّة ورئيسها ، وأمير من بها في عصره ، بحيث أن القاضي والنائب من تحت غمرته ومشورته ، وكان الشافعي يتأسَّف على فوات لُقِيِّه " ويؤثر عنه أنه لقي هارون الرشيد فسأله الرشيد : " ما صلاح بلادكم قال يا أمير المؤمنين ، صلاح بلادنا إجراء النيل ،

---

(1) أحمد أمين " ضحى الإسلام " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٧٢ .

وصلاح أميرها ، ومِنْ رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت العين " . وعلى الجملة فكان رجل مصر في علمه ونبله وفضله مات ١٧٥ هـ . (١)

الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤ هـ)

وُلِد بعسقلان وهي من قرى غزَّة ، ثمَّ سافرت به أمَّه إلى مكَّة حتى لا يضيع نسبه وينشأ على ما ينشأ عليه ضرباؤه من قبيلته قريش فقدم مكة وعنده قريباً من عشر سنوات ، ثمَّ أخذ في دراسة الفقه على يد شيوخه بمكة وبرع فيه ، وأراد أن يلتقي الإمام مالك فرحل إلى المدينة ولازمه حتى وفاته سنة ١٧٩ هـ ، ثم سافر إلى اليمن فارتفع شأنه بها ، وطار صيته فيها ، وبسبب مؤامرة دُبِّرت له استدعاه الرشيد إلى العراق وعفا عنه بعد محاورته ، وفي بغداد درس الشافعي الفقه الحنفي فجمع بين الإمامين الكبيرين : أبو حنيفة ، ومالك ، وحقد عليه بعض العلماء المقربين إلى الخليفة فخرج من بغداد إلى مكة وأقام بها مدَّة ينشر علمه على الحجَّاج القادمين إلى مكة ، وفي سنة ١٩٥ هـ عاد إلى بغداد ، وأقام بها سنتين يدرِّس فيها العلم ، وفي عام ١٩٨ هـ خرج إلى مصر إذ أنه سمع شيئاً عن مصر وأهلها فحبب إليه الذهاب إليها ؛ ليقوم بنشر علمه ، وكان الليث ابن سعد الفقيه المصري الكبير قد مات من قبل ، وفرح المصريون بالشافعي ورحَّبوا به ترحيباً عظيماً واحتفوا بقدومه وأنزلوه منزلاً كريماً لما عرفوا عنه من علم وفضل ، وقد تزوج الشافعي في مصر ولم يغادرها حتى توفيَّ فيها عام ٢٠٤ هـ ، واغتمَّ المصريون لموته غمّاً عظيماً ، وجزعوا لوفاته جزعاً شديداً . (٢)

وعلى الجملة كانت في مصر حركة كبيرة دينيَّة ، تدرِّس القرآن والحديث والفقه والقراءات ، وتعنى بالقَصَص ، وما يتضمن من ترغيب وترهيب ، وكان مركزها مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، ونرى أن بعض المصريين الصميمين ممن دخلوا في الإسلام تأثَّر بهذه الحركة تثُّراً كبيراً فنرى عثمان بن سعيد المصري المعرف بوَرْش من أصل قبطي اشتهر بإحدى القراءات المنسوبة إليه ، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالديار

---

(1) أحمد أمين " ضحى الإسلام " مرجع سابق ص ٨٨– ٩٠ بتصرف .
(2) انظر د. علي جمعة " موسوعة أعلام الفكر الإسلامي " المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

المصريَّة في زمانه ، وكان ماهراً في العربيَّة ؛ مات بمصر سنة ١٩٧ هـ ونرى بعده ذا النون المصريّ الأخميمي النوبي الأصل وهو أحد رءوس الصوفيَّة الصوفيَّة ومؤسسها في الديار المصريَّة توفي سنة ٢٤٥ وقد قارب التسعين . (١)

وكان من الأعلام في التاريخ والنحو والأنساب أبو محمد عبد الملك بن هشام ، صاحب السيرة المنسوبة إليه توفي سنة ٢١٣ هـ ، وإلى جانب الحركة العلميَّة الدينيَّة كانت هناك ناحية علميَّة هي امتداد مدرسة الإسكندريَّة قبل الفتح هي حركة لاهوتيَّة طبيَّة فلسفيَّة معاً ، وقد بقيت هذه الحركة مدة العهد الأموي واستمرت إلى العباسي ، وقد ازدهرت هذه الحركة في العهد الطولوني أيضاً .

ثقافة دينيَّة مختلفة الأنواع ، وثقافة لسانيَّة من نثر وشعر ، وثقافة فلسفيَّة لاهوتيَّة طبيَّة مما خلفته الإسكندريَّة كل ذلك كان في مصر في ذلك العصر . (٢)

ولم يقتصر علماء مصر على علوم الدين واللغة والعلوم الإنسانيَّة بل كان هناك علماء مصريون بارزون في مجال العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة والفَلَكيَّة ارتبطت أسماؤهم بمصر حيث نبغوا في ربوعها وحققوا شهرته فيها ومن هؤلاء العلماء .

الحسن بن الهيثم (٣٥٤- ٤٣٠ هـ)

أعظم علماء مصر والعالم في الفيزياء والفلك والرياضيات في العصور الوسطى وأحد ثلاثة يزدهي بهم تاريخ العلم العربي ، وهم ابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيروني ، بلغت الحضارة العلميَّة الإسلاميَّة في عهدهم الذروة ، وذلك من منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ولعلَّه بين علماء الطبيعة الإسلاميين أرفعهم شاناً وأعلاهم كعباً وأرسخهم قدماً ، وربما عُدَّ في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور . (٣)

هذا العالم العظيم ولد حوالي ٣٥٤ هـ وعاش أول أمره بها ثمَّ انتقل إلى القاهرة بدعوة من الحاكم بأمر الله ، وفيها عاش أغلب عمره وألَّف معظم كتبه وتوفي بها عام ٤٣٠هـ .

---

(1) أحمد أمين " ضحى الإسلام " مرجع سابق ص ٩٢ بتصرف .
(2) نفسه ص ٩٥، ٩٦ بتصرف .
(3) د. عبد الحليم منتصر " معجم أعلام الفكر الإنساني " ج ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٣١٣ .

ابن النفيس (٦٠٧- ٦٨٧هـ)

مكتشف الدورة الدمويَّة الصغرى وأحد رواد علم وظائف الأعضاء ولد في بلدة (القرَش) التي تقع بقرب دمشق عام ٦٠٧هـ درس ابن النفيس الطب في دمشق وكانت وقتئذ قد ورثت شهرة بغداد ، وأنشأ فيها نور الدين محمود بن زنكي مكتبة ضخمة ، والبيمارستان النووي ، ودعا إليها أمهر العلماء ثمَّ انتقل ابن النفيس إلى القاهرة حوالي عام ٦٣٣هـ وتدَّرج في مراكز الأطباء حتى أصبح رئيس أطباء مصر قاطبة ولم تقتصر شهرته على الطب فقط، بل كان يعد من كبار علماء عصره في اللغة والفلسفة والفقه والحديث. وتوفي القاهرة عام ٦٨٧هـ . (١)

ابن يونس المصري (القرن الرابع الهجري)

ولد بقرية صدفا بصعيد مصر حوالي عام ٣٤١هـ وهو سليل بيت اشتهر بالعلم فقد كان جدُّه من كبار العلماء وأبوه من كبار الحفاظ والمحدِّثين ، أما هو فقد عني بالفَلَك ودراسة سير الكواكب وعُدَّ من كبار الفلكيين العرب . أسس مرصد ابن يونس الذي كان جزءاً من دار الحكمة في القاهرة التي شيدها الفاطميون لينافسوا بها دار الحكمة في بغداد ، وكان مزوداً بكثير من آلات الرصد . وضع ابن يونس جداول فلكيَّة جديدة هي أدق ما عرف في عصره ووضع " الزج الحاكمي الكبير " وأدَّت أرصاده إلى تحسين قيم الثوابت الفلكيَّة وحلَّ قدراً من مسائل الفلك الكروي بالإسقاط والتعامد . (٢)

سبق ابن يونس جاليليو في اختراع بندول الساعة وهو الذي رصد كسوف الشمس وخسوف القمر عام ٩٧٨م في القاهرة، وأثبت فيها تزايد حركة القمر، وحسب ميل دائرة البروج فجاءت أدق ما عرف قبل إدخال الآلات الفلكيَّة الحديثة. وتقديرا لجهوده الفلكية، تم إطلاق اسمه على إحدى مناطق السطح غير المرئي من القمر.(٣)

كمال الدين الدميري (٧٢٤ – ٨٠٨ هـ)

---

(1) انظر بول غليونجي " معجم أعلام الفكر الإنساني " ج ١ مرجع سابق ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .
(2) انظر د. عبد اللطيف محمد العبد " موسوعة أعلام الفكر الإسلامي " مرجع سابق ص ٣٣٣
(3) موقع المعرفة على الإنترنت .

ولد بصعيد مصر في دميرة عام ٧٢٤ هـ درس بالأزهر الشريف حتى أصبح من أبرز علماء جماعة الأزهر القديمة الذين أرسوا علم الحياة ، وقد أولع بدراسة المخلوقات التي ابتدعها الخالق عز وجل فتوفر على دراسة الحياة الحيوانيَّة وتوفي عام ٨٠٨ هـ من أهم مؤلفاته كتاب " حياة الحيوان الكبرى " وقد تحدَّث فيه عن النواحي العلميَّة المتعلقة بسلوك الحيوانات وتوالدها وخصالها ، ويعتبر كتاب الدميري هذا مزيجاً من العلم والأدب والتاريخ والفلسفة والحديث والقصص وقد تُرْجِم إلى عديد من اللغات ويمكن اعتبار الكتاب بمثابة أوّل مرجع علمي شامل في علم الحيوان ظهر في القرن الرابع عشر الميلادي في وقت لم تكن فيه علوم الحياة قد ظهرت بعد . (١)

ابن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨ هـ)

هو المفكِّر العبقري الذي كان فيلسوفاً اجتماعيّاً مبتكراً ، ولذا يُعدُّ بحق مؤسس علم فلسفة التاريخ ورائد علم الاجتماع ولد في تونس وتلقَّى العلم على يد علماء المغرب والأندلس ثمَّ رحل إلى غرناطة بالأندلس ثم عاد إلى المغرب ليظلَّ بها أربع سنوات ثمَّ رجع إلى الأندلس ثمَّ إلى المغرب ثانية حيث أخذ يدوِّن مؤلفه الكبير " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " ومقدمته الشهيرة ثمَّ سافر بعد ذلك إلى مصر عام ٧٨٤ هـ وعمل بالتدريس بالجامع الأزهر ثمَّ تولى القضاء وظلَّ بمصر يعمل بالقضاء حوالي ثلاثة وعشرين عاماً حتى وافاه أجله عام ٨٠٨ هـ وأثناء وجوده في مصر قام بعدة تعديلات في مؤلفه الكبير . (٢)

وهناك علماء مصريون كثيرون غير هؤلاء أثروا الحضارة الإسلاميَّة وساهموا بجهد وافر في إنشائها ورفعتها .

والشيء الملفت للنظر هو أنَّ تحضُّر مصر وتقدَّمها ونبوغ علمائها ومفكِّريها كان مرهوناً باستقلالها سياسيّاً ، لا علميّاً لا وثقافيّا ، عن الخلافة العباسيَّة وقيام دولة مستقلَّة فيها (طولونيَّة ، إخشيديَّة ، فاطميَّة ، أيوبيَّة ، مملوكيَّة) حيث لا

---

(1) انظر د. عبد الفتاح غنيمة " موسوعة أعلام الفكر الإسلامي " مرجع سابق ص ٨٦٤
(2) انظر د. عبد الحليم منتصر " معجم أعلام الفكر الإنساني " ج ١ مرجع سابق ص ٣١٣ ، وانظر د. عبد اللطيف محمد العبد " موسوعة أعلام الفكر الإسلامي " ص ٣٢٩ ، ٣٣٠.

يراعي حكامها إلا مصلحتها ولا ينفقون خيرها إلا على أهلها ، كما يلاحظ أنَّ سقوط مصر في يد العثمانيين كان بمثابة شهادة وفاة لحضارتها ونهضتها ، وفور استقلالها عن الدولة العثمانية في أوائل القرن التاسع عشر أخذت طريقها إلى النهضة والتقدم ثانية .

وفي الصفحات التالية نستعرض في إيجاز شديد تاريخ مصر من الفتح الإسلامي إلى الغزو العثماني ؛ لبيان عوامل ازدهارها وأسباب تخلُّفها في تلك الفترة .

مصر من الفتح الإسلامي إلى الغزو العثماني

بعد الفتح العربي الإسلامي أصبحت مصر جزءاً مهماً من الخلافة الإسلامية ، كما قلنا ، يجري عليها ما يجري على غيرها من أحكام وظروف ، وظلَّ الولاة يتوافدون على مصر من قِبَل الخليفة بعد موت عمر بن الخطاب في عهد عثمان بن عفان من (٢٣ – ٣٥ هـ) ثم في عهد علي بن أبي طالب من (٣٥ – ٤٠ هـ) والذي بوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وانتقل الحكم إلى معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأمويَّة ، ويستمر الحكم في الأسرة الأمويَّة من (٤١ – ١٣٢هـ) حتى تغلَّب عليهم العباسيون وآل إلى الدولة العباسيَّة (١٣٢ – ٦٥٦ هـ) جميع الممالك الإسلاميَّة .

وتعتبر فترة الحكم الأموي فترة استقرار ونظام ورخاء بالنسبة لمصر ، وكان أغلب ولاة مصر يتَّسمون بالعدل والقدرة وحسن الخلق ، أما الفترة الأولى من الحكم العباسي وحتى مجيء ابن طولون إلى مصر فهي فترة تتَّسم بالقلق السياسي والفوضى الإدارية ، وارتفاع مبالغ الجبايات وتعددها ، وجَأَر فيها المصريون بالشكوى من الظلم ، ومن تُعَرُّض أمور البلاد كلها للفساد . (١)

أما فترة أحمد بن طولون وأسرته (٢٥٤– ٢٩٢هـ) فكانت مصر فيها ولاية شبه مستقلَّة تأسست فيها نظم حكم جديدة مشابهة لتلك الموجودة في دولة الخلافة العباسيَّة ذاتها ، فبدأ ابن طولون بتخفيف المغالاة التي كانت تُتَّبع في جباية الخراج ، وكفَّ

([1]) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٩٦ ، ٩٧ .

عماله عن الجبايات الظالمة ، كما عمل على حماية الفلاح وبثَّ الطمأنينة في نفسه ؛ بالإصلاحات الإداريَّة ، والقضاء على الفتن والاضطرابات والفوضى ، وبتوفير موارد المياه له ، كما استخدم النصارى وعمل على كسب وُدِّهم أيضاً حيث كانوا من الأقليات الكبرى التي لها وزنها ، فاستخدم منهم أهل الفن والصناعة في بناء جامعه وتخطيط " القطائع " وصناعة السفن وغيرها ، وكذلك فعل مع اليهود .

وانعكس أثر هذه الإصلاحات الاقتصاديَّة والإداريَّة الحاسمة في مضاعفة الإنتاج في ميادين الزراعة والصناعة وازدهار التجارة ، فظهرت معالم الثراء على البلاد وأهلها . (١)

وبعد انهيار الدولة الطولونيَّة عام ٢٩٢ هـ عادت تبعيَّة مصر المباشرة للخلافة العباسيَّة وكانت الدولة العباسيَّة تمر بعواصف من الاضطرابات وعدم الاستقرار .

وبعد الدرس الذي تلقَّته الدولة العباسيَّة من أحمد بن طولون، فقد حاول الخلفاء السيطرة على مصر من خلال كثرة تعيين الولاة وتغييرهم وباقتطاع جزء من اختصاصاتهم ومنحه إلى عمال الخراج ، ففي خلال ثلاثين عاماً من سقوط الدولة الطولونيَّة إلى تولية الإخشيد توالى على مصر أحد عشر والياً، بل وصل الأمر إلى تغيير أربع ولاة في سنة واحدة كما وصلت المنافسة بين الولاة وعمال الخراج إلى حد أن بعض عمال الخراج كان يتحكم في تغيير الوالي عن طريق الخليفة العباسي في بغداد .

فتحت تجربة ابن طولون ودولته العيون على ما يمكن أن تقدِّمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكريَّة اقتصاديَّة كبرى، من تمكَّن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل، وبهذا يقيم لنفسه مُلْكاً يدوم بدوامه ويورثه لذريته لذلك حرص الأذكياء من ولاة مصر في هذه الفترة أن يثبِّتوا أقدامهم فيها . (٢)

وبعد ثلاثين عاماً من سقوط الدولة الطولونيَّة نجح محمد بن طغج الإخشيد في أن يؤسِّس في مصر دولة شبه مستقلة دامت ٣٤ عاماً . من عام (٣٢٣ – ٣٥٧هـ) .

---

(1) نفسه ص ١٠٨ .
(2) موقع الهيئة العامة للاستعلامات " الدولة الإخشيدية " .

حاول الإخشيديون أثناء حكمهم مصر أن يتشبَّهوا بالطولونيين من جميع النواحي خاصة في مراسم البلاد وفي المواكب الرسميَّة وفي منظمات الدولة ، وإن كانوا قد حقَّقوا نجاحاً في استقرار مصر ورخائها فإنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الطولونيون .

وبعد وفاة كافور الأخشيد اضطربت أحوال الدولة الإخشيديَّة ، وانتهز المعز لدين الله الفاطمي ذلك الاضطراب وعدم الاستقرار الموجود في مصر بالإضافة إلى ضعف الدولة العباسيَّة في بغداد لانشغالها بصد غارات البيزنطيين الذين توغلوا في البلاد ، فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلِّي في سنة ٣٥٨ هـ ، وتمكَّن بهذا الجيش من أقامة الدولة الفاطمية في مصر . (١)

والملاحظ أن مصر كانت في معظم الفترة الواقعة بين (١٣٢– ٣٥٨هـ) شبه مستقلَّة ولا تتبع الخلافة العباسيَّة إلا تبعيَّة شكليَّة فقط ، تتمثل في ذكر اسم الخليفة قبل الوالي عند الدعاء على منابر المساجد أو ضرب العملة باسمه ، ثمَّ أخيراً إرسال مبلغ من المال إلى عاصمة الخلافة سنويّاً ؛ مما أعطى مصر تَفَرُّداً عن سائر الولايات العباسيَّة الأخرى ؛ فقد كانت هي الأغنى والأكثر ثراء ، وكان إقليمها هو الأوسع مساحة ، وكان جيشها هو الأقوى ، وكانت أرضها هي الأخصب والأكثر عطاء . (٢)

وبانتهاء الدولة الإخشيديَّة على يد الفاطميين خرجت مصر من التبعيَّة للدولة العباسيَّة لتصبح عاصمة للخلافة الفاطميَّة التي أقامت إمبراطوريَّة واسعة قويَّة ذات حضارة مزدهرة ضمَّت إلى جانب مصر المغرب والشام والحجاز واليمن وصقلِّيَّة.

دام حكم الفاطميين لمصر نحو قرنين من الزمان من (٣٥٨– ٥٦٧ هـ) ويمكن أن نطلق على القرن الأول من هذين القرنين عهد الاستقرار ؛ ففيه تمَّ تنظيم الشئون الداخليَّة ، ونشر الأمن ، ووضع النظم الإداريَّة الجديدة ، والعناية بالجيش ، وتنمية الزراعة ، والنهوض بالتجارة وتشجيع الآداب والعلوم والفنون .

---

(1) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ١١٣ .
(2) نفسه ص ١١٩ .

أما القرن الثاني من حكم الأسرة الفاطميَّة في مصر فقد بدأت تظهر فيه الخلافات وبدأ الضعف والانحلال يدب في أجهزة الدولة . (١)

بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد (أخر خلفاء الدولة الفاطميَّة) اجتمعت عناصر السيطرة على الحكم في مصر في يد صلاح الدين بن نجم الدين أيوب الذي كان وزيراً للعاضد وزادت قوته وتأكدت بوصول العائلة الأيوبيَّة كلها من الشام إلى مصر وتم إحلالهم في جميع الوظائف الكبرى بالبلاد محل كبار الموظفين الفاطميين، وقام صلاح الدين بدور كبير في إقامة الدولة الأيوبيَّة في مصر بالتدريج ، فبدأ بإضعاف الخليفة العاضد وإبعاد قواده عن القاهرة وأحلَّ محلهم رجالاً تابعين له ، وبدأ كذلك بتعميم حركة إنشاء المدارس ، وأوَّل مدرسة أنشأها هي المدرسة الناصرية في الفسطاط .

تولى المُلْك من الأسرة الأيوبيَّة في مصر ثمانية ملوك استمرَّت مدة حكمهم حوالي ثمانين عاماً من سنة (٥٦٧ – ٦٤٨ هـ) كان للدولة الأيوبيَّة أثار مهمة من الناحية السياسيَّة تتمثل في القضاء على الدولة الفاطميَّة الشيعيَّة بمصر ، والعودة بها إلى نفوذ الدولة العباسيَّة السنيَّة ، ومن الناحية العسكريَّة تتمثل آثارها في استعادة قوَّة البلاد ، والوقوف في مواجهة الجيوش الصليبيَّة ، أما من الناحية الدينيَّة فكان الأثر المهم هو العودة إلى المذهب السُّني بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي كان الفاطميون يحاولون نشره في مصر .

في أواخر أيام الدولة الأيوبيَّة سيطر المماليك على معظم الوظائف الكبرى في مصر، ومع مقتل " توران شاه" آخر سلاطين الدولة الأيوبيَّة تزوجت شجرة الدر (زوجة الملك الصالح أيوب) من أحد زعماء المماليك وهو "أيبك التركمانى" وقامت بذلك السلطنة المملوكيَّة في مصر الإسلاميَّة وأمضى السلطان "أيبك" معظم سنوات حكمه (١٢٥٠ – ١٢٥٧ م) في دفع غارات ملوك الشام من الأيوبيين على مصر ، واتَّسعت السلطنة المملوكيَّة البحريَّة حتى شملت مصر والشام ، وتولى عرشها بعد " أيبك التركمانى " وابنه فئة من السلاطين يعرفون بالمماليك البحريين أشهرهم السلطان

---

(1) نفسه ص ١٢٦ .

" قطز" (١٢٥٩ – ١٢٦٠ م) والذي ألحق بالمغول أوَّل هزيمة في تاريخهم في عين جالوت ، والسلطان الظاهر " بيبرس" (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) وهو الذي نجح في إقامة الخلافة العباسيَّة في القاهرة وجعل لمصر وسلاطينها من المماليك سيادة دينيَّة على أنحاء العالم الإسلامي .

وقد انتهى العصر المملوكي بدخول العثمانيين مصر بعد انتصارهم على السلطان " طومان باى" في موقعة الريدانية ١٥١٧م .

تمكَّن المماليك من حكم مصر مدة تزيد على القرنين ونصف بانفرادهم بالسلطة على أسرتين : المماليك البحرية من (٦٥٠ – ٧٨٤ هـ) ، ثم المماليك البرجية الشركسيَّة من (٧٨٤– ٩٢٣ هـ) ، كما كان للمماليك شأن عظيم في تقوية جيوش الأمَّة العربيَّة الإسلاميَّة في مختلف العصور بل إنَّ دورهم في مصر لم ينته بزوال دولتهم وسلطانهم المطلق مع الغزو العثماني سنة (١٥١٧م / ٩٢٣هـ) ؛ فقد تمكَّنوا من التغلغل في السلطة حتى كان النفوذ الشكلي للوالي العثماني ، أما النفوذ الفعلي فكان لبقايا طبقة المماليك لمدة ثلاثة قرون أخرى ، حتى أن محمد عليّ الذي تولَّى حكم مصر في أوائل القرن التاسع عشر لم يجد أمامه سبيلاً للتخلص منهم نهائيّاً إلا بالقضاء عليهم قضاء مبرماً في مذبحة القلعة الشهيرة سنة ١٨١١ م .

والمماليك في عصر الحكم المملوكي قبل الغزو العثماني كان اهتمامهم الأكبر ، كقادة عسكريين ، هو تأمين حدود البلاد والسيطرة على زمام الأمور في الداخل وهم وإن لم يكونوا أصحاب حضارة أو راغبين في إقامتها إلا أن مصر كانت في عهدهم دولة مستقلَّة مستقرَّة خاصة كبار سلاطينها مثل : عز الدين أيبك الذي صدَّ مع أقطاي حملة لويس التاسع ، وسيف الدين قطز قاهر التتار ، والظاهر بيبرس الذي استأصل فولول التتار ، والناصر محمد بن قلاوون، والأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام .

فبرغم صراع الأمراء المماليك على الحكم وقتل بعضهم بعضاً من سبيله إلا أنهم قضوا على أخطر عدوين على مصر والعرب وهم التتار والصليبيين فيحمد لهم هذا كما يحمد لهم بعض الإصلاحات التي قاموا بها من إنشاء المدارس والمساجد والمكتبات وتشييد العمائر والجسور والقناطر وحفر الترع والخلجان ... والذي ساعدهم

على هذه الإصلاحات رغم كثرة حروبهم أن مصر في عهدهم لم تكن ولاية مملوكيَّة خيرها لغيرها من الولايات الأخرى إنما كانت مصر هي مقر حكمهم فحرص ملوكهم الكبار على إصلاحها وتعميرها .

التتار والعثمانيون الأصل والطغيان وإظهار الإسلام

كان العثمانيون شراً مستطيراً على العرب عامة وعلى مصر خاصة ففي عهدهم أصبحت مصر ولاية من الولايات التسع والعشرين العثمانيَّة ؛ فنهبت ثرواتها لإثراء بلاط الخلافة وعاصمتها ، ورُحِّل علماؤها البارزون وعمالها المهرة فهدمت الحضارة المصريَّة لصالح النهضة العثمانيَّة ؛ فصار العثمانيون بذلك أشرَّ من التتار؛ فإذا كان التتار طغاة متوحشين ، أعداءً للحضارة ، نهَّابين لثروات البلاد فإن العثمانيين زادوا فوق ذلك أنهم حرموا البلاد من علمائها وعمالها وضربوا على مصر عزلة قاتلة ؛ فلَبِثَ المصريون في كهفهم ثلاثمائة سنين إلا اثنتي عشرة سنة (١٥١٧ – ١٨٠٥ م) ثمَّ بُعِثُوا ليعلموا كم جنى عليهم العثمانيون .

كنت أشبِّه العثمانيين دائماً بالتتار في الخراب والدمار حتى اكتشفت أنهم من جنس التتار فعلاً ، وسيرتهم هي نفس سيرة التتار حتى في اعتناقهم الإسلام ، والثابت تاريخيّاً أنّ القسم الأعظم من التّتار اعتنق الإسلام على المذهب السنى منذ دخول حفيد جنكيزخان "بركه خان " الإسلام ، وهذا لم يمنع ابن تيميَّة من الإفتاء بوجوب قتال التتار المسلمين بل إنه خرج بنفسه لقتالهم عندما جاءوا ليحتلُّوا بلاد الشام .

يقول ابن كثير في ذلك : " وقد تكلَّم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه .

فقال الشيخ تقي الدين بن تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان

يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد . "[١]

وبنو عثمان قبائل تتريَّة طرقت في القرن الأول للميلاد بلاد تركستان الواقعة شرقي بحر قزوين واستوطنتها ، ثمَّ اعتنقت الإسلام في منتصف القرن الرابع الهجري .

وفي القرن السابع الهجري وصل جنكيزخان بجيوشه إلى تلك البلاد فرحَّل بعض سكانها إلى أسيا تحت قيادة زعيمهم " أرطغل بن سليمان " وأقطعهم السلطان السلجوقي أرضاً واسعة يقيمون فيها ، وخلف " عثمان بن أرطغل " أباه فاستقلَّ بالحكم وأسَّس السلطنة العثمانيَّة وتبعه في الحكم ابنه " أورخان بن عثمان " الذي ألَّف جيشاً من ستة آلاف من الأسرى أطلق عليهم " الإنكشاريَّة " أي الفرقة الجديدة، وعبر بهم مضيق " الدردنيل " ووسَّع مملكة أسلافه ، وقد سار من تلاه من السلاطين ، وهم مراد الأوَّل ، ومحمد الأوَّل ، ومراد الثاني على نهج من سبقهم في التوسعات حتى بلغت " الإنكشاريَّة " مائة ألف مقاتل ، وعندما آلت السلطنة إلى محمد الثاني تمكَّن من الانتصار على جيوش الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الشرقيَّة في "بيزنطة" وفتح " القسطنطينيَّة " سنة ١٤٥٣م وأصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لهم.[٢]

الدولة العثمانيَّة وانهيار الحضارة الإسلاميَّة

لقد أصيبت الشعوب الإسلاميَّة في مراحل الدولة العثمانيَّة الأخيرة بالتبلد وفقد الإحساس بالذات، وضعف الإيمان ، فاستبدلت الخرافات والبدع بالإيمان الصحيح ، واستبدلت الدَّجَل والبحث في المُغَيَّبات بالعلم والبحث في أسرار الكون .

لقد انحرف سلاطين الدولة العثمانيَّة المتأخرين عن شرع الله فلم يقوموا بعبادة الله على الوجه الصحيح الذي يطهِّر القلب ويزكِّي النفس ويسمو بالأخلاق ، ولم يأخذوا في أسباب العلم النافع الذي يُعَمِّر الأرض ويصلحها ، ولم يسيروا في البلاد التي حكموها سير الخلفاء الراشدين بل ساروا فيها سير الحجاج بن يوسف الثقفي فكثرت الاعتداءات الداخليَّة بين الناس وتعرَّضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تَعَطُّل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن ، وبلايا تولَّدت

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ٢٧ ، ٢٨ بتصرف
(2) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ١٨٥ ، ١٨٦ بتصرَّف .

على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والإنجليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصَّلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمَّة العثمانيَّة، وحرموا التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب ، وضاعت الديار، وتسلط الكفار .

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط الله عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلَّط الله الغرب على المسلمين في الدولة العثمانيَّة .

إن الذنوب التي يهلك الله بها الدولة ، ويعذب بها الأمم قسمان :

١- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به .

٢- كفر النعم بالبَطَر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغني والثروة فهذا كله من الكفر بنعمة الله ، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمراؤهم[١]

ولمَّا دبَّ في الدولة العثمانيَّة الوَهَن حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ، ومحاولة تأسيس أُسَر محلية كالمماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد عليّ في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، القراملیون في ليبيا . [٢]

وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانيَّة ساهم في إضعافها ثم سقوطها .

الدولة العثمانيَّة والمشروع الصهيوني

لقد ساعد ضعف الدولة العثمانيَّة وتراجعها المستمر على إتمام المشروع الصهيوني ؛ فلقد اضطرت الدولة العثمانيَّة إلى تقديم التنازلات القانونيَّة الكثيرة مثل: الامتيازات

---

(١) انظر: دولة الموحدين لعلي محمد الصلابي، ص١٧٠.
(٢) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص٩٤.

الأجنبيَّة، ويمكن القول بأن نظام الامتيازات الأجنبيَّة هو المسئول عن تحويل يهود الدولة العثمانيَّة والعالم الإسلامي ككل إلى جماعات وظيفيَّة تابعة لدول أجنبيَّة تدين لها بالولاء وتتمتَّع بحمايتها. وحاولت الدولة العثمانيَّة التخلص من هذا النظام أو تقليل أضراره دون جدوى إذ أن نظام الامتيازات كان جزءاً لا يتجزأ من الهجمة الإمبرياليَّة الغربيَّة على الشرق، وساعد على إحكام قبضة الإمبرياليَّة على دول العالم العربي وعلى تحويل بنيتها السياسيَّة والاقتصاديَّة إلى بنية تابعة .

وقد أُلغي نظام الامتيازات في مصر بمقتضى معاهدة مونتريه عام ١٩٣٧م التي نظَّمت فترة انتقالية (بقيت خلالها المحاكم المختلطة) حتى عام ١٩٤٩م مما نتج عنه اتساع الثغرة التي سمحت للفائض البشري اليهودي بالتسلل .

ومن المعروف أن الدولة العثمانيَّة كانت ترحب بهجرة اليهود إليها منذ عملية طردهم من أسبانيا. ومع تَزايُد تَدخُّل الدول الأجنبيَّة، وتَزايُد الأطماع في فلسطين، بدأت الدولة العثمانية تحاول أن تمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين (مع استمرار فتح الأبواب خارجها). بل فتحت باب الهجرة أمام اليهود إلى فلسطين شريطة أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية، أي شريطة أن يتحولوا من عنصر استيطاني (قتالي) غريب إلى عنصر وطني محلي (وكانت هذه هي السياسة الرسميَّة حتى عام ١٩١٤). وكانت الدول الكبرى تتدخل لحمل الدولة العثمانية على السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين وملكية الأراضي فيها، فاضطرت الدولة العثمانية إلى إصدار قرار عام ١٨٦٧م بمنح الأجانب حق ابتياع الممتلكات في فلسطين، وهو القرار الذي استفادت منه الجمعيات التبشيرية المسيحية والجماعات الاستيطانية المسيحية مثل فرسان الهيكل، كما استفاد منه المستوطنون الصهاينة في مراحل لاحقة. وحينما حاولت الدولة العثمانية منع اليهود من امتلاك العقارات في فلسطين (عام ١٨٨٤م)، ادَّعت الدول العظمى أن هذا خرق لنظام الامتيازات. وكان قناصل الدول الغربية يستخدمون نفوذهم لتسهيل عملية استيطان اليهود. وحين صدرت قرارات تحرِّم هجرة اليهود (غير العثمانيين) عام ١٨٨٨ ثم عامي ١٨٩١ و١٨٩٨، عبَّرت الدول الغربية عن استيائها وساعدت المهاجرين على التحايل على هذه القوانين .

وحينما اتُخذ قرار تقسيم أسلاب الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ، اتخذ أيضاً القرار بتأييد تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين ومن ثم صدر وعد بلفور. وانتهت المسألة الشرقية مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية . (١)

كانت هذه نُبْذة يسيرة عن الدولة العثمانيَّة التي قضت على الحضارة الإسلاميَّة وساهمت في إنجاح الحركة الصهيونيَّة الشيطان الأكبر الذي يحارب العرب والمسلمين .

أسباب ضعف الحضارة الإسلامية

لقد تضافرت عدة عوامل أدَّت إلى تراجع الحضارة الإسلاميَّة وضعفها وعلى رأس تلك العوامل الاحتلال العثماني . فمنذ أن وطئت قدم العثمانيين أرض العروبة والإسلام وحل بها الخراب والدمار " حيث صارت البلاد مسرحاً للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفاً من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقاً لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعيَّة وشمل البلاد التأخر إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أمَّا ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصاديّاً . " (٢)

وإن المرء ليأخذه العجب من كتَّاب المقررات المدرسيَّة المصريَّة الذين يطلقون على الاحتلال العثماني الأجنبي اسم " الفتح العثماني " !! كما يطلقون على الحكم العسكري العثماني المستبد " الخلافة العثمانية " فكأن البلاد العربيَّة كانت بلاد كفر وإلحاد فجاء العثمانيون ففتحوها ونشروا فيها الإسلام !!

---

(1) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٤ ج٢ الباب الثالث الدولة العثمانية .

(2) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣١ .

وهم بذلك يسوُّون بين الفتوحات التي قام بها صحابة رسول الله لتحرير الشعوب من قبضة الاحتلال الأجنبي الغاشم (الفرس والروم) وبين هذا الاحتلال الأجنبي العثماني الغاشم ، كما يسوُّون بين الأخلاق الإسلاميَّة النبيلة التي اتصف بها صحابة رسول الله وبين الأخلاق اللا إنسانية التي اتصفت بها الطغمة العسكريَّة العثمانيَّة المستبدة كما يدنسون اسم الخلافة الإسلاميَّة الراشدة بإطلاقه على هذا الحكم العسكري المستبد .

يقول د. زكي البحيري [١] : " إن معنى قبول فكرة أن مجيء العثمانيين كان فتحاً ونصراً عظيماً في عقول تلاميذنا يعني ترسيخ فكرة قبول كلِّ غازٍ يُوَلَّى علينا، والرضوخ لكل حاكم يحكمنا مهما كانت أهدافه ، أمَّا أن يعرف تلاميذ وطلاب مدارسنا أن مجيء العثمانيين كان غزواً فإنه يعني أن وجودهم لم يكن الوضع الأمثل الذي كان يجب أن تقبله شعوبنا العربيَّة ومنها مصر ؛ فالعثمانيون حكموا شعوبنا لصالح سلاطينهم ورعيَّتهم الخاصَّة وعوَّقوا بذلك مسيرة شعوبنا . " [٢]

والمثير للدهشة أن مبررات هؤلاء الكتَّاب الذين يدافعون عن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وحجَّتهم الرئيسة هي أن العثمانيين هم الذين حموا بلاد الإسلام من الدول الأوربيَّة بلاد الكفرة !! ونسي هؤلاء – أو تناسوا – أن الحروب الصليبية هي التي أيقظت روح الجهاد الإسلامي ووحَّدت الأمَّة بعد فترة من التمزُّق ونسي هؤلاء أن هذه الحروب هي التي ولَّدت أعظم من حكم وعدل وقاد وانتصر – بعد الخلفاء الراشدين – نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي .

فلو أن الغزو العثماني العسكري الغاشم لم يحطَّ على الأمَّة العربيَّة الإسلاميَّة كقطع الليل المظلم لاستمرَّت النهضة الإسلاميَّة ولما غرقت البلاد الإسلاميَّة في بحر الظلمات العثماني .

---

(١) أستاذ مساعد بقسم المواد الاجتماعيَّة بكلية التربية جامعة المنصورة .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " دار نهضة الشرق ص ٤٧ .

لقد استغلَّ العثمانيون اسم الخلافة الإسلاميَّة التي يعلمون مدى تأثيرها في نفوس المسلمين الذين كانت العاطفة الدينيَّة لديهم أقوى من أي رابطة أخرى ليقضوا بها على حضارة الإسلام ويحبطوا بها كل حركة تحرر " كان الحكم العثماني سيئاً فهو حكم أجنبي جامد متخلف أسدل على الشرق العربي أستاراً من التخلف والتأخر في كافة المجالات ونواحي النشاط ، ومع ذلك فإن العرب في المنطقة لم يحاولوا الانتفاض عليه ويرجع ذلك إلى الرابطة الدينيَّة التي ربطت العرب بالعثمانيين فإن بلاد المسلمين كانت تعتبر دولة واحدة يطلق عليها (دار الإسلام) ولما كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية حملت لواء الحرب أول ما حملت على الدول الأوربيَّة (بلاد الكفر) ، وكانت العاطفة الدينية في تلك القرون من أقوى الروابط ، وكانت العاطفتان الدينيَّة والوطنيَّة ممتزجتين بحيث كان من الصعب الفصل بينهما ، ولم يكن للعروبة كيان منفصل عن الإسلام وإلى ما بعد قيام الحرب العالميَّة الأولى وفي مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ظل هذا الرباط يشد جماهير كثيفة من العرب إلى الخلافة الإسلاميَّة " (١)

والذي يؤكد ارتباط العثمانيين الزائف بالخلافة الإسلامية واستغلالهم المقيت للدين الإسلامي تراجع الإسلام في عهدهم كدين حضاري نهضوي يجعل عمارة الأرض وإصلاحها عبادة ، والرقي بحياة الناس ورفع الظلم عنه بشتى أنواعه : (السياسي ، الاجتماعي ، الاقتصادي) في مقدمة أولويات خليفة المسلمين ، " وَإِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ " لحساب المفهوم السلبي للإسلام كدين يدعو إلى الزهد في الدنيا والتفرُّغ للعبادة والخضوع للحاكم وإن جلد ظهرك وأخذ مالك !!

لقد حفلت مصر تحت حكم العثمانيين بفرق المتصوِّفة وطوائفهم ، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائمهم ، والمساجد والزوايا باجتماعاتهم ، وانتشر شيوخهم في الريف والحضر ، وتغلغل نفوذهم في المدن ، وقد انتهت بعض الدراسات الجامعيَّة إلى نتيجة مؤدَّاها أن الحياة المصريَّة خلال هذا العصر خاصة كانت تدين

(1) د . محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣٤ ، ٣٥ .

لتعاليم الصوفيَّة أكثر مما تدين لقواعد الدين أو حتى لأثر الحضارة الأوربيَّة التي هبَّت عليها بعد ذلك . (١)

لقد كان العثمانيون السبب ليس فقط في تخلف الأمَّة الإسلاميَّة وإفساد الدين الإسلامي كدين حضاري تقدمي بل كانوا السبب أيضاً في وقوع بلاد الإسلام في براثن الاحتلال الأجنبي : الإنجليزي والفرنسي والإيطالي لسنوات طويلة مما صيِّر الأمَّة الإسلاميَّة إلى هذا الوضع المهين في الوقت الراهن

أليس التخلف الحضاري والعزلة اللذان فرضهما العثمانيون على البلاد كانا هما السبب في الاحتلال الفرنسي ؟

والحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد الإسلام وصانعة حضارته ، وإن كان في العثمانيين خيرٌ لكانوا تعاونوا مع إخوانهم المسلمين في إقالة عثرتهم ومواصلة نهضتهم إما الذي حدث فكان استعماراً بغيضاً استعبد الشعوب واستغل مواردها وجردها من عوامل نهضتها فأول شيء عمله السلطان سليم الأول أبطل النقود العربية القديمة " وضرب نقوداً جديدة تحمل اسمه ولكنها كانت أخف من القديمة بمقدار الثلث فخسر الناس في ذلك ثلث أموالهم " (٢)

أهذا هو الفتح العثماني ؟! أهذه هي الخلافة الإسلاميَّة ؟!

إن السلطان سليم الأول اعتبر نفسه مالكاً لأراضي مصر ، وبذلك كان صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، وأنَّ المماليك بسطوا أيديهم على الكثير من أراضي مصر فصارت ملكاً لهم ، وباقي الأراضي موزَّع بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف ، وأن الفلاحين كانوا يملكون النزر اليسير من الأراضي ينتفعون بها ويتوارثونها ، لكن ملكيتهم لها متعلِّقة على دفع الضرائب والإتاوات ، وهذه الضرائب والإتاوات تدفع للملتزمين ، والملتزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى " التزاماً " أي

---

(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٥٣ .

(١) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " الجزء الثالث مرجع سابق ص ٨١٦

يتصرَّفون فيها تصرُّف المالك في ملكه على أن يلتزموا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب . (١)

ولم يكتف العثمانيون وعمالهم من المماليك بالاستيلاء على أرض مصر وجني ثرواتها من دون المصريين بل أصدر سليم الأوَّل أمره " بترحيل طوائف من أعيان الناس ، ما بين قضاة ونواب قضاة وأكابر من المسلمين والمسيحيين واليهود والتجار والورَّاقين إلى اسطنبول ليقيموا بها إقامة جبريَّة ، ليكونوا أشبه بالرهائن من ناحية ، لكي يألفوا الحياة العثمانية في عاصمة الدولة " (٢)

أ ليس ذلك سبياً كالسبي البابلي والآشوري والروماني ، ولم يكتف سليم الأوَّل بذلك بل عمل على تجريد المسلمين من خيرة علمائها وعمَّالها " وكان من بين الذي قضى السلطان سليم بتسفيرهم إلى اسطنبول عدد كبير من أرباب الصنائع المهندسين والبناءين والنجارين والمرخمين والمبلطين ، وطائفة من الفعلة ، وقيل في تعليل هذه الهجرة الإجبارية لأصحاب الحرف ، أن السلطان سليم أراد أن ينشئوا له مدرسة في اسطنبول مثل مدرسة الغوري . وأيّاً كان الغرض من جمعهم وتسفيرهم ، فقد ترتب على هذه العملية تعطيل خمسين صناعة على ما يقول ابن إياس " (٣)

وكانت مصر خلال هذا العهد ترزح تحت الحكم العثماني المباشر ، وكان السلطان هو الذي ينصب الباشا ، أما خزانة مصر فكانت مرتبطة بخزانة السلطنة مباشرة . وبالجملة إن مصر لم تكن تتمتع تحت حكم العثمانيين بالاستقرار من جراء ما كان ينشب فيها بين القوى الثلاثة من فتن . كما أن الباشاوات أنفسهم لم يكونوا مطمئني النفوس على بقائهم في الحكم لأن أمر تثبيتهم أو نقلهم كان يرجع إلى قدر ما لكل من سند بين حاشية السلطان . فكان هَمُّ الباشا جمع المال لرشوة هذه الحاشية للبقاء في الحكم مدة أطول مما أضَّر بمصالح البلاد والعباد إضراراً بالغاً . وقد بلغ عدد هؤلاء الباشاوات ٧٦ والياً في حقبة قدرها ١٩٠ سنة فقط .

---

(٢) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط٥ دار المعارف ص ٥٢٧ .
(2) نفسه ص ٨١٦
(3) نفسه ص ٨١٧

هذا وكانت ولاية مصر خلال هذا العهد عوناً للسلطان عند كل أزمة ، وكثيراً ما سيَّرت مصر الحملات إلى الأقطار التي تثور على السلطنة كاليمن وسوريا والحركة المهدية في السودان ، والحركة الوهابيَّة في المملكة العربيَّة السعوديَّة ؛ وكثيراً ما جنِّدت النجدات مساعدة للدولة على أعدائها ، كما فعلت في حرب فارس.

لقد قام الاحتلال العثماني بأعمال دمَّرت فيها الحضارة الإسلاميَّة ، وقضت على الأمَّة العربيَّة منها :

١- إغلاق المدارس فانشر الجهل .

٢- ترحيل العلماء البارزين ، والصناع المهرة ، والفنانين المبدعين من بلادهم العربية ، وتوطينهم في استانبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية لكي يبنوا لهم فيها حضارة للدولة العثمانيَّة التي كانت تتسم بالقوة وتفتقر إلى الحضارة والعلم .

٣- استنزاف الموارد الاقتصاديَّة ، وحرمان بلاد المسلمين منها .

٤- العمل على القضاء على اللغة العربيَّة لغة الإسلام وحضارته ، لحساب اللغة التركيَّة ، وهو ما عرف بالتتريك : أي جعل اللغة التركيَّة لغة رسميَّة للبلاد الإسلاميَّة الخاضعة للحكم العثماني.

٥- إطلاق أيدي ولاتهم في البلاد العربية في أموال الناس يتخوضون فيها بالسلب والنهب . مما تترتب على ذلك انتشار الفوضى والفزع وعدم الاستقرار .

١٠- استبداد الحكام ، واستخدام العنف في مقاومة معارضيهم .

لهذه الأسباب وغيرها غرق العرب والمسلمون في مستنقع التخلف والجهل ، وأصبحوا صيداً سهلاً لبلاد أوربا الإمبرياليَّة الناهضة .

***